"المنصورة "تصنع التاريخ

(مقاربات أدبية وتاريخية)

فــــؤاد حجــازى



7

إبداع الحرية
سلسلة تعنى
بنشر الإبداعات
العربية

عزبة إسماعيل - كفر البدماص - المنصورة - المراسلات : باسم المشرف العام
ش أحمد فؤاد رقم 24 . ت : 2236147 - 2236133 / 050

فـــؤاد حجـــــازى ..
جهـازاً وطنيا لصناعة
الأدب والأدبـــــــاء

بقلم / عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

طوال حياتى ما شفت فيها مواطن مصرى ، يضحك مثلما يضحك فؤاد حجازى . ضحكته فى هجير الحياة . ترطب القلب . ضحكته فى صقيع الحياة تدفئ القلب . انـه الكاتب المصرى الوحيد الذى لم ترغمه الهزائم على البكاء .. أنـــه يضحــك علــى الانكسار . كما يضحك للفرح . أنه مبدع دائم الضحك ، ولعله يتفق مع " فولتير" فــى مقولته :

" لو لم تبق لنا ضحكاتنا لشنق الناس أنفسهم ، فويل للفلاسفة الذين لا يبســطون بالضحك تجاعيدهم لان العبوس فى نظرى مرض عضال " .

بالنسبة إليه . كنت مثل (المدب) ، اصرخ بصدق . اخسر كل شئ بجـدارة ، لا ابدى اى رغبة فى التنازل او التقهقر . خسرت صداقة العديد من الأصحاب . كنت اشعر بعدم الرجولة والتوافق مع النفس . إذا لم أقل للأعور . هو اعور فى عينه ..

بين العم فؤاد منبسط الأسارير ضاحكا ، لا عن غباء ، وانمــا بدرجــة فائقــة الوعى والحساسية ، ومع أننا كنا أولاد مدينة واحدة ، إلا أنني لم أكن أعرفه ، وكــان وراء معرفتى به حكاية طريفة ..

عام ١٩٦٥ م اتصل بى الراحل صلاح حافظ رئيس تحرير مجلة آخر ســاعة ، قبل ان ينتقل لرئاسة تحرير مجلة روزاليوسف وذلك ، بقصد انضمامي إلــى فريــق الأدباء الذين كان يخطط لعمل ريبورتاج أدبى خاص بهم مع مشاكل الأدب ، وقد عهد بمهمة ذلك إلى السيناريست والكاتب الصحفى احمد صالح ..

كانت مجموعة الريبورتاج مكونة من محمد حافظ رجب ، ابراهيم أصلان ، يحي الطاهر عبد الله ، محمود بقشيش ، مجيد طوبيا ، وحين ذكر صلاح حافظ اسم فؤاد حجازى .. سألنى :

- اتعرفه ؟.. أنه بلدياتك .

بدأت رحلة البحث عنه فى دروب وشوارع المنصورة . سألت شبانا وشيوخا من الأدباء والشعراء .. معظمهم ارتعشت نظراتهم وهم يقولون برنة توحى بأننى مقبل على كارثة :

ـ بس خللى بالك .. دا ماركسي

فى تلك السنوات . كان بنفسي أن أجلس إلى واحد من هؤلاء الذين روت أجهزة الإعلام وكتاب السلطة . بأنهم انحلاليون ، اباحيون ، يزدرون الديانات ..

وحين اقتربت منه ، شعرت بأننى كنت فى غربة عن جزء ايجابي فى حياتى ، وظللت أعمل إلى جواره فى المرحلة الأولى من سلسلة " أدب الجماهير " ، وفى الوقت الذى حاول فيه ترسيخ أقدام السلسلة على الساحة الأدبية . كان ولا يزال يخوض المعارك ضد الزيف الثقافي .. ضد العسكريين الذين قاموا بثورة يوليو ١٩٥٢م ، ولم يعودوا إلى ثكناتهم بل وضد الشيوعيين الذين وقعوا على بيان حل الحزب فى آخر الستينيات من القرن الماضى ، لكى تستخدمهم السلطة فيما بعد فى أعمال الكتابة وتحرير الصحف والمجلات .

لا ينكر أحد أهمية حضوره على الساحة الأدبية ، ولا يمكن لأحد أن يغض الطرف عن مواقفه الجريئة ، ومدى انتمائه وحبه لمصر ، من خلال تيار حركة كتاب مصر فى الأقاليم ، ثم أن أحداً لا ينكر دوره الريادى فى أدب الماستر ، فهو الذى أعطى لأدباء مصر حرية طباعة أعمالهم بعد أن كان يطول بهم طابور النشر ، ويمتد أكثر من خمس سنوات أمام أبواب مؤسسات النشر الحكومية

إلى جانب ذلك ، فهو يمتاز بخاصية فريدة لم أعهد لها مثيلا فى حياة الأدباء .. يشجع من أحبطته الحياة وتوقف عن الكتابة لأن يكتب . يظل يلح عليه ويشحنه يتجاوز المثبطات حتى يستعيد عافيته ، إلى جانب قيامه أخذ القصص من المبدعين الشبان والعمل على نشرها على صفحات مجلات وصحف القاهرة .

ولا يزال فاتحا يديه على اتساعهما .. مثل ضحكته العريضة التى تبعث على الضحك وتحطيم المستحيل .

معركة المنصورة

في الأدب المصري المعاصر

فؤاد حجازي

معركة المنصورة فى الثامن من فبراير ١٢٥٠ م ، التى دارت بين مصر والفرنسيين ومن معهم من الإنجليز والقبارصة والطليان ، من المعارك الفاصلة فى التاريخ ، بعدها استطاع الأشرف خليل قلاوون الاستيلاء علي عكا ، آخر معاقلهم الحصينة فى ١٨ مايو عام ١٢٩١ م ، أي بعد واحد وأربعين عاما من معركة المنصورة ، وانحسر وجودهم فى الشام ، ولم تجرؤ أوربا علي الاعتداء علي الشرق العربي ، إلا بعد خمسة قرون من هذا التاريخ، حين حضرت الحملة الفرنسية إلي مصر بقيادة نابليون فى آخر القرن الثامن عشر ، وفشلت ، ثم جاءت حملة فريزر ١٨٠٧ وهُزمت ، ثم جاء الغزو الإنجليزي للإسكندرية فى يوليو ١٨٨٢ . ومع ذلك ، لا نجد أثرا يذكر، لهذه المعركة الفاصلة فى أدبنا المعاصر .

مسرحية ، أو اثنتان ، وعدة روايات ، لا يتجاوز عددها أصابع اليد الواحدة ، مكتوبة ، كأنما لصبية المدارس الثانوية ، ليصيبوا شيئا من التاريخ.

والنص ، الذي بين يدي ، كمثل ، علي ما أقول ، هو رواية " أضلاع الصحراء " للأديب الكبير ادوار الخراط . ولقد اعتمد المؤلف ، فيما أري ؛ الإطار التاريخي لروايته ، وكذا ترتيب الأحداث ، طبقا لما جاء فى كتاب " هزيمة لويس التاسع " للدكتور / جوزيف نسيم يوسف ، الصادر عن مؤسسة

المطبوعات الحديثة (دون تاريخ أو رقم إيداع) .

كتب ادوار ، روايته ، وعيناه علي وحدة عنصري الأمة ، حيث اصطنع لقاء صدفة ، بين عائد إلي دمياط بعد أن هددها الفرنسيون ، وكان الأولي بـه أن يعود أدراجه ، حيث الهاربون علي الطريق ، وبين قبطي مهاجر منها، حيث نذر الحرب تؤذن بالدمار .

وتتطور الأحداث ، ليساعد هذا القبطي ، فى تهريب السلاح والنفط ، إلي دمياط المحتلة ، مستغلا صفته كقبطي ، يتساهل معه الفرنسي المسيحي ونسي الكاتب ، أن هذا إذا انطبق علي آحاد الأقباط ، فهو لا ينطبق علي عمومهم ، وأن ما ألمح إليه يحمل من باب خفي ، إشارة علي إمكانية تواطؤ القبطي ، مع المسيحي الغازي ، ولا أعتقد أن الكاتب أراد لنا أن نفهم ذلك . يقول ص ١١٤ من الرواية علي لسان الفارس الغريب : " ما بك حاجة إلي الزنار يا عم جبره . فعلامه الصليب والوشم القبطي علي ذراعك فيها الكفاية فإذا دخلنا دمياط منذ اليوم فأنا ابن خالك بطرس بن حنا العسال .. سمعتني يا اسحاق (يا بن) الخال : بطرس بن حنا العسال .. وبلدي " البرمون " وأنا بياع جبن وزبد وعسل . ولي في البرامون نخالة وتجارة . هذا الشيخ عبد الله سوف يرسل إلينا برسله ، بإذن الله ، وندبر أمرنا . لن نترك خبيئة فى معسكر الغزاة إلا عرفها المعسكر المصري . ولن ندع للغزاة راحة ولا أمنا . وإني لواثق من حيلة الشيخ واحكام تدبيره " .

هل يكفي الإخبار ، فى هذه الفقرة الحوارية ، بشأن المقاومة المنتظرة ، عن جعلنا نعايشها ونعاني معاناة أصحابها . فعندما دخلا دمياط لم نعرف شعور جبره ، وهو يكشف عن صليبه ، للفرنسيين ، إذا كان قد كشف ، وهل كانت الحيلة تنجح فى كل مرة ، وإذا ما لاح خطر ، كيف كان يلاقيه..؟!

وكيف حال الرسل ، الذين يرسلهم الشيخ عبد الله .. هل من القبط ، أم من الفلاحين المسلمين ، وإذا كانوا من المسلمين ، فما هي حيلتهم فى التسلل إلي دمياط المحاصرة .. ؟!

ويدرج الكاتب علي الإخبار ، بدلاً من التشخيص ، حتي نهاية روايته ، ففي ص ٢٧٨ يقول السارد : وأبطاله أمام جثة توران شاه " هذا هو مجد الدنيا وصولة الملك وجبروت السلطنة . هذا ما بقي من الرجل الذي ركب عواصف المغامرة والمتعة وثمل بخمر الإمارة واللذة : هذه الجثة العفنة المنتفخة الشائهة .

الملك لك وحدك يا رب . أنت وحدك صاحب الملك العظيم " .

وعظ ، ومباشرة ، الأجدي منهما ، أن يقدم لنا هذا الملك ، في لحظات فجوره ، حتي نتلمس حالته ، ونستشف دوافعه ، ونتعاطف معه ، أو نبغضه. ولم يكلف الكاتب نفسه ، مشقة ، زيارة الأماكن التى وقعت فيها الأحداث فى دمياط والمنصورة . فقوله أن بالمنصورة " الجامع الكبير " يدل علي أنه لا يعرف شيئا عن معالمها ، فليس بها ما يسمي " الجامع الكبير " وتحاشيه لوصف الأزقة التى دارت بها المعارك ، وكانت عاملا مهما فى إحداث النصر ، فقد دخلها الفرنسيون بخيول ذات أحجام كبيرة ، لم تساعدهم علي سرعة الحركة ، مما جعل أولاد البلد يوقعون بهم . أقول أن جهل ادوار بهذا، أخبرنا أنه لم يحضر إلي المدينة قط وجاء وصفه للمعركة داخل المدينة ، دائرا فى الفراغ .

ولقد قاده افتقاره للمعلومات التاريخية ، إلي محاولة التعويض ، عن طريق المبالغة فى الوصف . وصف الشخصيات ، وما تلبس ، والأماكن التى تحل بها ، الوصف بتأن ، وتفصيل لا يناسبان ما تمر به الشخصيات من أحداث جسام ، تقود الذهن إلي توقع انفعالاتها ، وما تفكر فيه ، لتجاوز المحن، وليس لتأمل خطوط ثوب .. أو أحجار حائط . ففي ص ١٤٥ ، يقول الكاتب " وأقبل الشيخ مع ركب السلطان إلي المنصورة ، ومضت أمور الحياة بالناس لا تدع لهم راحة ، فانشغلوا عن كراماته " .

أي أن الناس فى اضطراب وكرب عظيم ، بعد احتلال دمياط ، وانسحاب السلطان مع جيشه إلي المنصورة ، استعدادا لمعركة مرتقبة ، ورغم اعتراف الكاتب فى الفقرة السابقة أن أمور الحياة لا تدع للناس راحة ، حتي أنهم انشغلوا عن الكرامات التى أشيعت عن الشيخ عبد الله .. إلا أن هذا الاضطراب ، وعدم الراحة ، لم يذهبا بهدوء السارد ، وتأنيه فى الوصف ، فإذا بالشيخ فى خيمة مشبعة بالدخان والبخور الخشن الحريف ، والقنديل الواحد يهتز حبله المعلق فى عارضة خشبية تحت خيش السقف المنخفض . من الذي عنده وعي ليعرف إذا كان البخور ، خشنا ، وحريفا ، بينما نفوس الناس تتوقع الخطر فى كل حين . وبنفس تعبير الكاتب " فإذا الخيمة كلها ، والنفوس تمتلئ بالشكاة والأنين ونغمات الصبر الطويل " ورغم ذلك يصف الكاتب بتأن : " ووقف أمام بهية (يقصد الشيخ)، تعطيه ظهرها ، وقد انهمر جسمها الممشوق فى ذلك الثوب الضيق الذي رآه عليها يومها ، الثوب المخطط بأحمر وأصفر وقد شحبت الخطوط الصفراء ، فى نور القنديل، حتي أوشكت أن تبدو بيضاء باهتة ، كأنها خطوط من جسمها تلوح بين خطوط الحمرة الشاحبة المنثنية اللصيقة ، كان جسمها متهدلا منثنيا فى وقفة التعب ، يبث حسا بالاستهتار والضجر والابتذال معا ، ويثير شفقة حميمة دافئة تجيش لها الأحشاء ، وهي ترفع ذراعيها فى الكمين الضيقين ، وتصطفق فى أصابعها المخضبة بالحناء رنات صغيرة من

الصناجات ، تتسق مع لحن الأرغول .. وصوتها المهيض المرهق تكاد تكون فيه بحة من طول الغناء ، فيه صدي أجش مثير وخافت " ص ١٤٧ الرواية . من الذي يستطيع أن يلحظ في ضوء القنديل المهتز أن الأصفر في ثوب بهية أصبح شاحباً ومن الذي يستطيع في جو الشكاية أن ينتبه لصدي في الصوت مثير وخافت ..ومن الذي يلفت نظره في هذا الجو أصابع مخضبة بالحناء ؟! .

وهكذا تخلل الوصف السرد ، الذي لا يحفل بالتفصيل الدقيق ، حتي يتنامى الحدث ، ويتسارع إيقاعه ، فأدي إلي بطء في الحركة وجمود في المشهد .

ولقد تجاهل الكاتب خاصيتين تميزت بهما معركة المنصورة :

الخاصية الأولي : المقاومة الشعبية في المنصورة ، ومواجهة أهلها وجها لوجه للفرنسيين والإنجليز في الشوارع ، والأزقة والبيوت ، وهزيمتهم ، رغم سلاحهم البسيط من أوان نحاسية وبلط وسكاكين ، في مواجهة الفرسان الغازين بدروعهم ورماحهم وسيوفهم ، ورغم أنها العنصر الحاسم في النصر، إلا أنها لم تنل من رواية تعداد صفحاتها ٢٨٣ صفحة من القطع المتوسط إلا صفحات قليلة.

الخاصية الثانية : مات السلطان نجم الدين أيوب قبل شهرين ونصف فقط من معركة الثلاثاء ٨ فبراير في المنصورة ، واستطاعت أرملته " شجرة الدر " إخفاء الأمر وسيطرت علي قادة الجيش ، وفرسان المماليك ، الطامعين فيها وفي العرش .

واهتم الكاتب بخاصيتين هامشيتين تاريخيا ، لكنهما ميزا روايته ، الخاصية الأولي : وجه الكاتب همه إلي المقاومة في دمياط ، وهي مع أهميتها، كانت مضايقة للعدو ، ومحاولة استنزافه ، حتي تحين المعركة الفاصلة ، فالعائد إلي دمياط ، الذي قابلناه علي الطريق في بداية الرواية ، أحب غجرية علي نفس الطريق اسمها بهية أصبح لها دورا في المقاومة ، فأقامت علاقة جسدية مع أحد قادة الفرنسيين ، لكن المرأة ، للحق، تختلج لواعجها ، فهي رغم إحساسها بالنشوة مع الفرنسي إلا إنها تشعر بالكره نحو قومه ، ففي هجمة لفرسان الفرنج بالشام ، حيث كانت بهية تعيش مع زوجها يحيي والأسرة ، لم تكن منجاة ، إلا في النهر ، واختطف الفرنج ابنهما .ومع أنه لا ذنب ليحيي في ذلك ومع أنه لا يستطيع منعهم ، حتي لو أراد ، إلا أنها " ومن يومها لم يخلص له قلبها . قام بينهما حاجز عريض ، كأنها تلقم عليه أن نجا ، وترك ابنه يختطف أسيراً " ص ١٦٢ . الرواية . ورغم الهجرة ، وتوالي الأيام ، فلم يذهب غضبها ، وجعلها هذا حسبما أراد الكاتب ، تخونه جهاراً ، نهاراً .

وسارت قطيعة بينها وبين زوجها الذي اعتبرته مقصراً فى إنقاذ إبنهما، ولعل هذا ما جعلها تتقبل حب الشيخ عبد الله الصامت لها ، لكنها الآن ، تصبر علي بلوتها ، مضاجعة الفرنسى ، التى تعجبها ، من أجل إحضار معلومات للمقاومة !! ، واحتج فران ممن اشتركوا فى المقاومة .

وانتصر منطق الغجرية ، وانتصر لها العائد إلي دمياط (الشيخ عبد الله) الذي قابلناه علي الطريق فى اول الرواية وقد أوشك حبه للغجرية ان يفصح عن نفسه ، وهو المتدين الذي ينوي الانقطاع للعبادة فى أحد مساجد دمياط . أما زوجها وبرفقته ابنهما ، فقد لزم الصمت ولم تثر نخوته ، لجفاء اصطنعه الكاتب بينهما ، دون مبرر مقنع .

الخاصية الثانية : إبراز العنصر القبطي فى المقاومة ، فهذا فارس غامض ، يظهر عند الشدائد ، ينقذ من هم فى مأزق ، وينصرف ، دون أن يعرف أحدٌ ملامحه ، أو وجهته ، أو من اين حضر ، وما هي ماهيته ، ولكن لن يطول بنا التفكير كثيراً ، فالفارس يتشح بملابس سوداء ، إشارة إلي ملابس رجال الدين الأقباط السوداء ، وهو يتبع المقاومين عن بعد . ولا يظهر إلا حين الحاجة إليه .. فهو المُخلص ، الناكر لذاته . لكن هذا المخلص ، لم نر ملامح وجهه ولا احسسنا بانفعالاته ، أو عرفنا فيم يفكر ، أو كيف تسير اموره، وبالتالي لم نستطع ان نتعاطف معه ، أو نحس به كشخص من لحم ودم " ذلك الراكب الأسود الذي يبدو علي البعد نقطة سوداء صغيرة ، لاتني ترتفع وتنخفض ، يخفيها ارتفاع الطريق ثم يعلو بها . هذا الراكب تتبعه منذ خرج من أشموم طناح. احتذي أثره علي الطريق " ص ٥٤ الرواية .

وعندما تأزم الموقف بأقطاى المتبوع بالفارس الأسود : " الجواد الأسود قد اختطف الطريق كأنه السهم المنطلق ، ووقع سنابكه يعلو ويتضخم " إلي ان : " وهب واقفا وثابتا فى ركابه ، وفي يده قوس كبيرة كأقواس القطانين ، وعندما التفت أقطاي خلفه فى لمحته السريعة رآه كبرج رقيق أو مئذنة راسخة ، وإن كانت رقيقة ، متمكنا علي جواده يعدو به لا يلوي ، حتي إذا أصبح علي وجه الدقة فى متناول رمية القوس ، انطلق منه سهم ينز والجواد ما زال يعدو ، فى سرعة تخف رويدا رويداً ، نحو المهاجمين .

كان الفارس قد هب لنجدته ، يهاجم الأعراب " ص ٥٩ الرواية . وهذا الفارس الغريب ، عندما يمرض الشيخ عبد الله " ومد يده إلي خريطته بجانب السرج ، فأخرج منها قارورة صغيرة من زجاج داكن فى قربة جلدية تحميها، ووضع عنق القارورة فى فم الشيخ وأمالها قليلا فانسربت منها قطرات ثخينة وسائل كثيف القوام حلو الطعم له [illegible]ة نافذة . وكان للسائل أثر السحر فى الألم

الذي أوشك أن يوقف عنق الشيخ " .

وعندما يسأله الشيخ :

- ما هذا الذي جرعتنيه أيها الغريب ؟ ومن أنت ؟ ما اسمك ومن أنت "

يتجاهل تعريف نفسه ، ويكتفي بالرد :

" عقار مجرب موصوف "

ويلح الشيخ فى السؤال ، فيأتيه الرد :

" - غريب عن البلاد ولكني من أهلها . كل بلاد العرب لي وطن " ص ٩٩ ، ١٠٠ - الرواية ، وهذا الحوار يساهم أكثر فى عدم إحساسنا بهذا الغريب ، بدلا من تقريبنا منه .

وينجح المصريون فى التسلل إلي داخل دمياط المحتلة ، عن طريق تجار الطريق ، الذين يبيعون المؤن للفرنسيين ، وهل كان يجرؤ أحد علي التعامل معهم ، والدعوة للجهاد من فوق منابر المساجد علي قدم وساق ، وتتسلل معهم الأسلحة والنفط ، فيقتل المقاومون فى المدينة الفرنسيين ، ويشعلون النار فى دورهم .

أما عن المقاومة الشعبية فى شوارع المنصورة وحاراتها ، الخاصية التاريخية الأولي ، يقول الكاتب فى ص ٢٣٦ من الرواية :

" ارتطمت سيول البشر المدرعة المسلحة فى الساحة الكبيرة واصطفق الحديد بالحديد ، الدروع الثقيلة القائمة الزوايا والأوشحة البيضاء المعلمة بالصليب الأحمر ، بالأقبية الصفراء والزرديات الطواعة الدقيقة الحلقات ، الأجساد وقد تشابكت بالأذرع والسيقان الصدور تضغط علي الصدور ، فى ملحمة مضطربة وشاسعة ، السواطير ترتفع بجهد ثم تتراخي ذراع المدافع لحظة واحدة فتنقض الفأس علي الأكتاف تفلق الحديد والعظام ، قضبان الحديد تخبط الزوايا وتطوح بالأجسام " .

هل شممت رائحة عرق ، هل أحسست لزوجة دم دافئ منساب ، هل أحسست بالحمية ، أو لفحت وجهك أنفاس مصري يهوي ، فيهوي قلبك معه ، أو امرأة تعاني ، فتتألم لمعاناتها ، هل روعتك نظرة رعب من فرنسي ، وقد سقط عنه قناعه ، وتهاوت خوذته ، هل عرفت من يتلقي ضربه من ، وبأي شعور يدافع ، ومن خانه توقعه ، ومن تمكن من تسديد طعنة فى مقتل ، وهل استمعت إلي سنابك الخيل تقرقع علي الطريق وهي - الخيل - تحمحم مذعورة . هل

رايت النساء والشيوخ والأطفال يساهمون فى المعركة .

يسحبون القتلي ، ويضمدون الجرحي ، ويحملون الطعام والماء للمحاربين.هل رايت الفلاحين يندفعون من القري ، علي وجوههم تصميم ، وفي ايديهم بُلط وفئوس ، هل رايت ابناء البلد ، يسدون الحارات علي فرسان الفرنسيين ، ومعهم ما ملكت ايديهم من سكاكين ، وحراب ، وأقواس . هل رايت الشوارع والحارات والبيوت ، وعرفت كيف كانت أشكالها ، وكيف كانت تحارب مع أصحابها ، وهل عرفت ، ماذا كان يقول الناس ، وكيف كانوا يصرفون أمورهم ، وأفواج الفرسان من الفرنسيين والإنجليز والقياصرة، والرهبان ، تتدفق علي المدينة . وماذا كانوا يفعلون وهم يقاومونها، لا شئ من هذا . وأصبح هذا الوصف الأصم الذي طالعناه قبلاً، خارج الزمان والمكان .

وتنتهي الرواية ، بزحف الجيش الفرنسي إلي المنصورة ، وهزيمته فيها واسر لويس التاسع ملك فرنسا ، دون أن يظهر اثر لشجرة الدر ، الخاصية التاريخية الثانية ، قائدة النصر ، فقد اختفت منذ المشاهد الأولي فى الرواية ، واكتفي المؤلف أن أرانا اياها ، ملازمه لزوجها فى مرضه ، محبة شغوفة ، وهو يبادلها نفس الشعور .

وربما كنا نلتمس العذر للكاتب ، فالرواية من بواكير اعماله ، انتهي من كتابتها ، كما هو مزيل فى طبعتها التى صدرت عن هيئة الكتاب فى ٣٠ / ١٢/ ١٩٥٩ . ولكن كيف نفعل ذلك ، ومزيل أيضا ، أنها صدرت فى عام ١٩٨٦ ، أي بعد أن نضج الكاتب وحقق شهرته . معني ذلك انه راض عنها ، بدليل موافقته علي نشرها فى هذا التاريخ المتأخر عن كتابتها، وعن بدايته .

المنصورة تصنع التاريخ

فؤاد حجازي

" في مؤتمر ، عُقد في كلير موت بفرنسا في الفترة من ١٨-٢٨/ ١١ / ١٠٩٠م، حث البابا إيربان سامعيه علي مساعدة العالم المسيحي في الشرق ، الذي يستغيث من أجل المساعدة ، والأتراك يتقدمون إلي قلب الأراضي المسيحية ويسيئون إلي السكان ، وركز علي القداسة الخاصة للقدس ووصف ألوان المعاناة التي يعانيها الحجاج في سفرهم إلي هناك " ص ١٩٨ رانسيمان * .

وعلينا أن نعود إلي الوراء قليلاً ، لنعرف ، من أين نبع اهتمام منطقة ، بما يحدث في منطقة أخري ، أو ما نسميه اليوم بالعالمية .

يقول الدكتور ، سليمان حزين في كتابه " حضارة مصر " ص ٤٨ : " قبل عهد الإسكندر ، كانت هناك عدة مناطق لكل منها حضارتها الخاصة ، في الصين والهند ، والشرق الأدني ، ومصر ، وبلاد الإغريق ، وكانت كل هذه المناطق تكون عالما حضاريا متميزا ، لا يتصل اتصالاً مباشر ، إلا بالعالم المجاور له ، كاحتكاك مصر بالشرق الأدني ، أو بلاد الإغريق بمصر ، أو الشرق الأدني ببلاد الإغريق ، فلما جاء الاسكندر ، وقام بحملته التاريخية من بلاد الإغريق إلي الشرق الأدني ، ثم مصر ، ثم حدود برقه ، ثم عاد إلي مصر ، ومنها إلي الشرق الأدني وإيران وتركستان الغربية وحدود تركستان الصينية ثم اتجه إلي الهند ثم عاد إلي الشرق الأدنى وقضي نحبه ، كانت هذه أول حملة احتكت فيها مناطق

(*) تاريخ الحملات الصليبية – ستيفن رانسيمان .

الحضارة المختلفة بعضها ببعض احتكاكا مباشرا ، فتقاربت أجزاء العالم وظهرت العالمية (أو بعض بوادرها علي الأقل) ووضعت أسس الاتصال العالمي ، فتحت الطرق وسعى عليها التجار والملاحون في البر والبحر ، وتبادل الناس السلع والأفكار ، بين مناطق لم يكن بعضها يعرف بعضا قبل عهد الإسكندر إلا بطريقة طارئة وغير مباشرة . ولعل من نتائج ظهور العالمية أن اتجه الفكر الديني في الشرق الأدني اتجاها جديدا . فقبل عهد الإسكندر لم يكن الناس مهيئين لأن يتقبلوا الأديان " التبشيرية " التى تفرض علي من يؤمن بها إبلاغ الرسالة إلي غير المؤمن ، وعلي هذا جاءت اليهودية غير تبشيرية ، ولم تنتشر في العالم (ولو أن اليهود أنفسهم قد انتشروا في الأرض) ، علي حين جاءت المسيحية والإسلام بعد الاسكندر دينين تبشيريين ، دعا كل منها إلي نوع من الأخوة العالمية ، فنقله أنصاره إلي الشرق أو الغرب ، أو الاثنين معا " وانتشرت المسيحية في أوروبا . ولعبت السياسة دورا هاما في جذب اهتمام أوربا بمنطقة الشرق الأدني ومصر، فالخليفة هارون الرشيد كان يبحث عن حليف يؤازره ضد بيزنطة .

" في نهاية القرن الثامن الميلادي أظهر شارلمان الذي كان علي وشك أن يتوج امبراطورا في روما ، اهتماما خاصا بإصلاح الأماكن المقدسة ، ولقيت اهتماماته ترحيبا كبيرا ، إذ أن الخليفة هارون الرشيد الذي سره أن يجد حليفا ضد بيزنطة شجعه علي إقامة مؤسسات في القدس وإرسال العطايا لكنائسها ، ولفترة من الزمان حل شارلمان محل الإمبراطور البيزنطي ، وكان العاهل الذي تحمى قوته الأرثوذكس في فلسطين .

وأقيمت الصلوات اللاتينية في كنيسة القديسة ماري الخاصة باللاتينيين ، وخدمت الراهبات اللاتينيات في كنيسة القبر المقدس .

ورغم انهيار امبراطورية شارلمان في عهد خلفائه ، إلا أن الغرب لم ينس تلك القصة ، وبالغت الأساطير والمأثورات في رواياتها ، وسرعان ما انبثق الظن أن شارلمان قد أضفي علي الأماكن المقدسة حمايته القانونية ، وقيل أنه قام بالحج إلي هناك . وأعلنت أجيال الفرنجة المتأخرة حقها في أن تحكم القدس " ص ٦٨- رانسيمان .

ولعل هذا ما جعل البابا ايربان يحث سامعيه علي الذهاب إلي الشرق في حملات مسلحة ، ولكن ، في الحقيقة كان دافعه اقتصاديا محضا ، كان المبدأ المستقر في النظام الإقطاعي بأوروبا أن يرث الابن الأكبر الأرض والثروة ، وعليه أصبح باقي النبلاء رغم ألقابهم فقراء ، فجاءت الدعوة للذهاب إلي الشرق فرصة ،

لإنشاء دوقيات وإمارات ، يعوضون بها ما فقدوه فى بلادهم . السبب الثاني هو هجرة قبائل الفرنك (الفرنجة) . من شمال أوروبا إلي جنوبها ، واستقرارهم فى فرنسا وإيطاليا وأسبانيا . بل أن الغرب وجميع القبائل البربرية من وراء البحر الأدرياتيكي يتحركون فى كيان واحد عبر أوربا .

وكان من ضمن المبشرين بالحرب الصليبية الراهب بطرس ، المشهور ببطرس الناسك .

ويرجع رانسيمان نجاحه لأسباب عديدة : " إذ كانت حياة الفلاح فى شمال غرب أوربا حياة قاسية غير آمنه . وأثناء الغزوات البربرية وغارات أهل الشمال ، لم تعد أراض كثيرة صالحة للزراعة ، فقد تهدمت السدود وطغي البحر والأنهار علي الحقول . ودائما ما كان اللوردات يعارضون قطع أشجار الغابات لأنهم يمارسون فيها رياضة الصيد ، وكانت القرية التى لا تحميها قلعة أحد اللوردات هدفا لأن يسرقها أو يحرقها الخارجون علي القانون أو الجنود المشتركون فى الحرب الأهلية المحدودة . وسعت الكنيسة إلي حماية فقراء الفلاحين وإلي إنشاء المدن المسورة فى الأرض الخالية ، إلا أن مساعيها لم تكن منتظمة وغير مجدية " ص ١٩٨- رانسيمان .

" كما كان تملك الأرض فى انهيار ، ولم يكن هناك نظام آخر يحل محله . وعلي الرغم من الاختفاء الفعلي لطبقة عبيد الأرض ، كان الناس مرتبطين بالأرض بالتزامات لا سبيل إلي الهرب منها بسهولة ، بينما عدد السكان يتزايد ، وليس من الممكن تجزئة الحيازات فى القرية إلا فى حدود معينة . واستنادا لرواية روبرت الراهب ، قال إيربان فى كليرمونت : (فى هذه الأرض تستطيعون بالكاد إطعام السكان ، وهذا هو السبب فى أنكم تستنفذون نتاجها ثم تثيرون حروبا لا نهاية لها وتقتلون بعضكم البعض) . وكانت السنوات الأخيرة تتصف بصعوبة خاصة ، إذ شهد عام ١٠٩٤ م فيضانات وأوبئة ، أعقبها جفاف ومجاعة، فكانت لحظة بدت فيها الهجرة شيئا جذابا للغاية " ص ١٩٩ -رانسيمان .

وكانت المستعمرات اليهودية قد أنشئت لقرون مضت علي طول الطرق التجارية فى أوربا الغربية ، وكان رؤساء الأساقفة يحابُونهم ويضفون الحماية علي من وراءه نفع منهم ، " علي عكس الفلاحين وفقراء المدن الذين تزايدت حاجتهم إلي المال بعد أن حل الاقتصاد النقدي محل اقتصاد الخدمات ، فغرقوا فى الديون أكثر فأكثر ، وزاد استياؤهم من اليهود أكثر فأكثر ، بينما رفع اليهود أسعار الفائدة عوضاً عما يفتقدونه من الأمن القانوني ، وكانوا كلما ساندهم الحكام

المحليون يحققون أرباحا فاحشة " . ص ٢٢٨ - رانسيمان .

وبالإضافة إلي ذلك ، كانت هناك حركة للإصلاح الكنسى في أوربا ، لسيادة الأفكار اللاهوتية ، واستبدال بعقوبات الملك عقوبات كنسية ، ونبذ العنف خاصة فى فرنسا ، ووقف الحرب بين الإقطاعيين ، حيث كان الرهبان ضالعين فى هذه الحروب ، ولهم فرق مسلحة ، خاصة ، ودعا البابا ايربان لتحرير المسيحيين بشكل عام " نظر البابا ايربان إلي الحملة الصليبية فى الشرق كجزء من حركة أكبر لتحرير المسيحيين ، ولم يفرق بينها وبين حركة استرداد الأندلس من أيدي المسلمين ". ص ٢٦ - ريلي * .

" ولم يحدث قبل عهد ايربان أن أعلن أي بابا حربا مقدسة نيابة عن المسيح ، وتمت معاملة المشاركين فى تلك الحرب ، معاملة الحجاج إلي بيت المقدس ، ولكنهم حجاج يؤدون القسم ويتمتعون بالغفران " ص ٣٦ - ريلي . وأصبح غفران ايربان بمثابة إعلان رسمي عن أن الحرب الصليبية هي الفرصة المتاحة لإعلان التوبة ، وكفارة عن كل ما تقدم من ذنوب ، ومنح البابا غفرانه لمن أراد البقاء فى الأندلس لمحاربة المسلمين هناك .

وتوالت حملات أوربا الاستعمارية علي الشرق ، وسميت بالصليبية ، لأن المشتركين فيها وضعوا علامة الصليب علي أكتافهم لتمييزهم عن غيرهم . مع العلم أن المؤرخين العرب ، أسموها حملات الفرنجة نسبة إلي قبائل الفرنك أو الفرنج الجرمانية ، المشتركة فيها . وأسست هذه الحملات بعض الإمارات فى الشام ، واستولت علي القدس وانشأت مملكة بيت المقدس . لكن الإغارات العربية عليها لم تتوقف . وكان الأسطول المصري يسيطر دوما علي الساحل ، ولاتني الجيوش المصرية تزحف إلي فلسطين وسوريا . وأدرك قادة هذه الإمارات أنهم لن يتمكنوا من ا لبقاء ، دون السيطرة علي مصر .

فمع ظهور العالمية ، التى أشرنا إليها سابقا ، برزت قيمة موقع مصر الجغرافي، واتجهت الأنظار من أهل الغرب وأهل الشرق نحو أرض الزاوية " مصر " ، واهتم الناس بشئون هذا الموقع الجغرافي الذي يتحكم فى طرق المواصلات بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب ، " فتحكمت مصر فى طرق التجارة ، وأصبحت مفتاح الاتصال بن الشرق والغرب ، ولاسيما فى عهد المماليك ، كما غدت مصر أيضا مركز الثقافة الإسلامية ، وقامت القاهرة في العهد الإسلامي ، بدور يشبه من بعض الوجوه ما قامت به الاسكندرية فى العهد الإغريقي

---

* الحملة الصليبية – جوناثان ريلي .

الروماني ، فكان الموقع الجغرافي الواحد قد استغلته ثقافتان مختلفان في عصرين مختلفين ، وكل ما حدث أن التوجه الثقافي لمصر قد اختلف ، فبعد أن كان نحو أهل الشمال والغرب في عهد الإغريق والرومان ، أصبح نحو الشرق والجنوب الشرقي في العهد العربي " ص ٥١ د. سليمان حزين .

ومع أن الحروب الصليبية بدأت في أواخر القرن الحادي عشر ، واستولي الصليبيون علي بيت المقدس علي ١٠٩٩م وكذا بيروت وعكا وحيفا ، إلا أنهم لم ينتبهوا إلا مؤخراً بعد أن هزمتهم مصر بزعامة صلاح الدين الأيوبي في حطين عام ١١٨٧ م ، مستعينا بمكانة مصر ومواردها الهائلة ، إلي الخطر المصري ، " لذلك لا عجب إذا أفاق الغرب الأوربي في أوائل القرن الثالث عشر أمام حقيقة كبري ، هي أن مفتاح بيت المقدس موجود في مصر ، وأنه إذا أراد الصليبيون أن ينعموا بحياة آمنة في بلاد الشام فعليهم أن يسيطروا علي مصر أولا " ص ٩٣ ـ الأيوبيون . د. عاشور * .

ونضيف ، أنه لا أمن لمصر ، أيضا إلا إذا كان الشام يخلو من أي قوات أجنبية ، أو وجود دولة معادية .

وفي الحقيقة ، فقد حاول الصليبيون في الشام غزو مصر ، قبل القرن الثالث عشر ، ففي أواخر القرن الحادي عشر قام جودفري دي بوايون بمحاولة عام ١٠٩٩م ، ثم أعقبه ، أخوه بلدوين أول ملوك مملكة بيت المقدس فغزا مصر عام ١١١٦ م ، وفي عام ١١٥٠ ، هاجم الصليبيون غزة ، ثم سقطت عسقلان آخر المعاقل المصرية في فلسطين عام ١١٥٣ .

بعد ذلك قام ملك بيت المقدس أما لريك (عموري الأول) بحملته الأولي ، فهاجم العريش عام ١١٦١م ، ثم قام بثلاث حملات أخري انتهت عام ١١٦٩ . ورغم فشل هذه الحملات ، فلم تنقطع الإغارات عبر سيناء ، حتي وصلوا إلي بحيرة البردويل ، وحاول رينودي شاتيون أن يتحكم في حركة التجارة الدولية بين آسيا ومصر في البحر الأحمر ، وهاجم الموانئ المصرية والحجازية ، وتمكن الأسطول المصري من سحق أسطوله تماما .

وهكذا أصبح واضحا أن قوات الصليبيين في الشرق ، ليست ندا للعرب ، لذلك انعقد أمل المملكة الصليبية في بيت المقدس علي قدوم حملة جديدة من أوربا . وبالفعل أعدت الحملة الخامسة ، ولكن بينما كان هدف حملات عموري تحويل مصر إلي دولة تابعة لبيت المقدس ، أو ضمها ، فإن هدف الحملة الخامسة كان

---

* الأيوبيون والمماليك ـ د. سعيد عاشور .

استرداد الشرف العسكري والهيبة ، اللتين فقدهما الصليبيون فوق تراب حطين ، واعتقدوا أنه يمكن إخضاع مصر أو تحييدها وإجبارها علي الدخول في معاهدة سلام تشترط عودة المملكة الصليبية في الشام إلي حدودها القديمة .

وهكذا جاءت الحملة الخامسة إلي مصر " كانت هناك أسباب عديدة تحفز الصليبيين علي الهبوط في دلتا النيل بدلاً من ضفاف الأردن . وأهم هذه الأسباب الرغبه الجامحة من جانب المدن الإيطالية التجارية (الممول الرئيسي لهذه الحملة) في السيطرة علي السوق التجارية الرئيسية في حوض البحر المتوسط، وضرب المنافسة المصرية القوية " ص ٢٩ – رؤية اسرائيلية – د. قاسم * .

وسرعان ما توافدت جموع الصليبيين علي الشام تلبية لدعوة البابوية ، وتجمعوا تحت قيادة حنادي برين ملك بيت المقدس . وجاءت الحملة إلي دمياط ، وحاول الملك الكامل سد مجري النيل ، لكنهم نجحوا في شقه ، عندئذ أغرق المصريون عدة مراكب لتعوق تقدم السفن الصليبية في النهر ، لكنهم حفروا خليجا ، كان يجري النيل فيه قديما ، وأجروا فيه الماء إلي البحر . وفي تلك الأثناء وصلت امدادات من قبرص وغرب أوربا ، بزعامة الكاردنيال بلا جيوس مندوب البابا . لكن دمياط ظلت صامدة أمام الحصار ، ما يقرب من سبعة عشر شهرا ، وسقطت في نوفمبر ١٢١٩ م .

وفي أخر يونيو عام ١٢٢١ م قرر الصليبيون الزحف إلي القاهرة عبر الدلتا . و كان الطريق الذي سلكوه ، عبارة عن منطقة مثلثة في الشمال الشرقي من بحيرة المنزلة (بحيرة تنيس وقتها) ويسمونها جزيرة دمياط لأن الماء يحدها من الشمال الغربي ، فرع دمياط ، ومن الجنوب الشرقي ، بحر اشموم ، ومن الشرق ، بحيرة المنزلة ، وتعترضها السدود والترع والمجاري المائية المتفرعة عن الفرع الشرقي للنيل .

وجمع القادة الناس ، وأقاموا خطا دفاعيا قبالة طلخا وعلي الضفة الشرقية للنيل ، حيث كانت توجد قرية صغيرة اسمها " جزيرة الورد " شيد الملك الكامل " منزلة " عند مفترق النيلين إلي دمياط واشموم طناح سرعان ما أقيمت فيها القصور والدور ومساكن للجند ، وسميت " المنصورة " تيمنا بالنصر .

واستعدت الجيوش المصرية في المنصورة لملاقاه الصليبيين الذي وصلوا إلي منطقة تفرع بحر أشمون (البحر الصغير) من فرع دمياط ، وحرصت السفن المصرية أن تتخذ مكانها في النيل لتسد الطرق أمام السفن الصليبية ، وتمنع

---

* رؤية اسرائيلية للحروب الصليبية – د. قاسم عبده قاسم .

اتصالهم بقاعدتهم في دمياط ، وسرعان ما قطع المصريون السدود والنهر ، والقنوات مليئة بماء الفيضان ، وأصبح الصليبيون في أرض غارقة بالماء فحاولوا الارتداد بسرعة إلي دمياط ، ولكن الملك الكامل ، كان قد أنزل عند شرمساح ، شمال شربين ، ألفي فارس ، ليقطعوا عليهم خط الرجعة .

وأصبح الصليبيون في موقف صعب ، المياه تحيط بهم من كل جانب ، ولا يستطيعون القتال في الوحل ، ولا يستطيعون العودة إلي دمياط ، فطلبوا الصلح في أواخر أغسطس عام ١٢٢١ م وكان الملك الكامل يستطيع إبادتهم، لكنه ، وقد اشتهر بتسامحه ، رأي السماح لهم بالخروج من مصر ، وقيل أنه فعل ذلك خشية من حملة صليبية جديدة ترسلها أوربا، واشترط أن يبقوا لديه رهائن حتي يسلموا دمياط ، وبالفعل أبقوا لديه عشرين من قادتهم علي رأسهم حنادي برين والكاردنيال بلاجيوس . وأخيرا تم جلاء الصليبيين عن دمياط في السابع من سبتمبر عام ١٢٢١ م .

بعدها استولي الجيش المصري علي مدينة القدس ، في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب في عام ١٢٤٤ م ، استردها من أيدي الخوارزميين الذين اقتحموها في نفس العام ، محققين انتصارا ساحقا علي الصليبيين . واستطاع الجيش المصري، وكان قد سيطر علي دمشق من قبل ، الاستيلاء علي قلعة طبرية وعسقلان ، وانحسر الوجود الصليبي عند يافا .

وأحدث سقوط القدس دويا هائلا في أوربا ، وقامت البابوية بالدعوة لحملة صليبية جديدة . فاستجاب لها لويس التاسع ملك فرنسا وأخذ يستعد لغزو مصر ، فيما عرف بالحملة الصليبية السابعة ، وقد تأكدت لدي الأوربيين فكرة الاستيلاء علي مصر ، بوصفها مفتاح بيت المقدس .

في ٢٥ أغسطس عام ١٢٤٨ م أبحر لويس التاسع ملك فرنسا من مرسيليا ، وفي ١٧ سبتمبر رست الحملة في قبرص ، وفي ١٣ مايو عام ١٢٤٩ أقلعت الحملة ، بعد أن تزودت بالمؤن ، وكانت الحملة تضم خمسين ألف مقاتل أغلبهم من الفرنسيين ، و ١٨٠٠ قطعة بحرية ، وفي تقدير بعض المؤرخين ، حوالي ثمانية وعشرين ألف مقاتل وعدد القطع البحرية أقل من ذلك بنحو الثلث تقريبا . وكان يقود الأسطول بحارة من جنوا ، والبازنة لجهل الفرنسيين بالملاحة ، وضمت الحملة فرقة انجليزية بقيادة وليم طويل السيف حاكم مقاطعة سالسبوري، وجماعة من الرهبان الداوية ، وهم من الرهبان المحاربين ، بقيادة رئيسهم وليم دي سوناك ، تؤازرهم جماعة من الرهبان الاسبتارية .

ووصلت الحملة إلي دمياط .. التي كانت محصنة تحصينا جيدا ، ويعسكر في

جنباتها جماعة من العرب الكنانية ، الذين اشتهروا بالفروسية والشجاعة ، للدفاع عنها ، إذا اقتحمها الفرنسيون . لكن ما أن ظهر الأسطول الفرنسي ، وبدأت طلائع الفرسان تصل إلي البر ، حتي حدث اضطراب في صفوف الجيش المصري .. ولم يوفق قائد الجيش الأمير فخر الدين يوسف ، في تنظيم صفوفه ، لملاقاة العدو ، وسرعان ما انسحب بجيشه إلي معسكر الملك الصالح نجم الدين أيوب في أشموم طناح (أشموم الرمان حاليا) .. ويقال في تبرير ذلك ، أن شائعة وصلته بموت نجم الدين أيوب ، الذي كان مريضا جداً ، وأن الأمير كان طامعا في العرش . وأهمل الجند تحطيم الجسر الذي يصل بين شاطئي النيل ، فاحتله الفرنسيون ، وانفتح الطريق إلي دمياط . وتبع الجيش ، جماعة الكنانية ، دون داع أيضا . وكان أن أمرا لملك الصالح بمعاقبة قادتهم ، واكتفي بتوبيخ الأمير فخر الدين ورجاله ، رغم أن العدو اقتحم دمياط ، دون قتال يذكر ، وهي التي صمدت أمام حملة حنادي برين الأقل عدداً وعدة . وقام أهالي دمياط بإشعال النار في دار السلاح (الزردخانه) وسوق المدينة وفي مخازنها ، حيث تكدست البضائع ، وكذلك بعض الدور الكبري ، حتي لا تقع بما فيها من الخيرات والمؤن والعتاد غنيمة في أيدي الفرنج . لم يرض الأهالي عما حدث وسرعان ما بدأوا يتعلمون فنون القتال والفروسية ، ولعلنا نستطيع أن نتفهم ما جاء في شروط استسلام القدس عندما دخلها عمر بن الخطاب عام ٦٣٨م " سمح لأهل الكتاب أي المسيحيين واليهود الذين الحق بها (الزرادشتيين) تلطفا بالاحتفاظ بدور عباداتهم يمارسون فيها شعائرهم دون قيد ، ولم يكن لهم أن يزيدوا من عددها أو يحملوا سلاحا أو يعتلوا جواداً وعليهم أن يدفعوا نوعا من ضريبة الرأس تعرف بالجزية " ص ٣٢ ـ رانسيمان .

نتفهم أن هذا قد طبق علي مصر القبطية ، عندما دخلها العرب ، لكننا لا نستطيع أن نفهم أن يظل ساريا ـ باستثناء الإعفاء من الجزية ـ بعد أن اعتنقت غالبية قبط مصر الإسلام .. ظلوا ممنوعين من حمل السلاح ، أي الانضمام للجيش ، واعتلاء جواد ، حتي لا يكونوا فرسانا ، وجلب الحكام الفرسان من الأجانب .. الأكراد ، والأتراك والأرمن .. لكن في أوقات الشدة ، والغزو الأجنبي كالمغول، والصليبيين ، غضوا الطرف ، عن حمل السلاح واعتلاء الجواد ، وهكذا انطلق المنادي من فوق منبر الجامع الأزهر ، وباقي مساجد مصر ، يحث الناس علي الجهاد وعلي حضور " المتطوعة " .

نظم الفلاحون والتجار من خارج دمياط مع أبنائها إغارات علي معسكرات الفرنسيين فيها .. وهربوا إليها السلاح ، والنفط ، لإشعال الحرائق في دورهم ، وأخذوا أسري كثيرين من جنودهم إلي معسكر الصالح أيوب في أشموم طناح .. وشجعهم الصالح فأعلن عن مكافآت سخية لكل من يأتيه برأس جندي من الغزاة

.. وظل المصريون طوال مدة ستة أشهر ، مدة مكوث الفرنسيين في دمياط دون حركة ، يشنون ما نسميه اليوم حرب عصابات، أو حرب استنزاف ، لإضعاف قدرات العدو . ولم يستطع قادة الحملة تحمل هذه الخسائر ، فقرروا سرعة التحرك إلي القاهرة وبالفعل غادروا دمياط في ٢٠ نوفمبر .

ورأي قادة الجيش المصري ، ضرورة الانسحاب إلي المنصورة ، حيث يمكن الدفاع عنها ، بخلاف أشموم طناح ، سارت حملة لويس في نفس المثلث الذي عانت منه حملة حنادي برين منذ ثلاثين عاما وإن كان الظرف في صالحهم ، لأن مياه الفيضان لم تأت بعد ، ويقال أن لويس أخر تحركه من دمياط ، ستة أشهر كاملة ، ليتفادي مياه الفيضان . ولكن كان عليه أن يجتاز مانعا مائيا .. بحر أشموم .. وهذا جعله يقف حوالي شهرين أمام المنصورة ، عاجزاً عن اقتحامها ، وكلما أقام جسرا ، ليعبر عليه جنوده ، تولي الفلاحون حفر خنادق حوله من جهتهم ، فتندفع مياه النيل وتقوض دعائمه ، وقام الأهالي بعبور بحر أشموم سباحة ، وشنوا الإغارات علي معسكر الفرنسيين ، واختطفوا كثيراً من جنودهم أسري .

ويقال أن أحد الخونة ، دلهم علي مخاضه ، قريبة عند سلمون ، يمكن لفرسانهم خوضها والوثوب داخل المنصورة . وكان الصالح أيوب قد توفي في ٢٣نوفمبر ، واستطاعت أرملته شجرة الدر * إخفاء الأمر . وكان أن قرر الفرنسيون الهجوم عن طريق المخاضة ، رغم معارضة الملك ، الذي كان ينتظر وصول امدادات من جهة ، ومن جهة أخري ، لم يكن قد أتم جسرا يعبرا عليه مشاته ، لتدعيم الفرسان إذا نجحوا في الاستيلاء علي المنصورة . كان الفرنسيون يقيمون معسكرهم علي الضفة الشمالية من بحر أشموم ، وكان معسكر المصريين علي الضفة الجنوبية علي تل مرتفع يعرف باسم جديلة (ضاحية جديلة الحالية) ، التي كانت تطل علي الشاطئ الجنوبي لبحر أشموم علي بعد ٣ كم شمال شرق المنصورة و ١ كم إلي الشرق من فرع دمياط وكانت القوات التي ستعبر المخاضة تنقسم إلي ثلاثة أقسام ، فرقة الكونت أرتوا وجماعة الفرسان الداوية بقيادة وليم دي سوناك والفرقة الإنجليزية بقيادة وليم طويل السيف وكان مع المقدمة فرقة الخيالة الملكية من حملة القسي ، ثم المجموعة الثانية من القوات وهي تتألف من فرسان شامبانيا بقيادة كونت انجو ، والقسم الثالث يتكون من الملك لويس وفرسانه .

---

* اسمها الحقيقي شجر الدر ، وعرفت بين الناس وفي الكتابات الشعبية شجرة الدر .

وكان علي رجال المقدمة عبور المخاضة إلي الجانب الغربي ، ومباغتة المصريين والاستيلاء علي معسكرهم ثم الانتظار حتي تعبر القوات الرئيسية بقيادة لويس ، ويبدأ الهجوم . وبالفعل عبرت الطليعة المخاضة ، وسبحت جيادهم فيها ، وغرق عدد كبير منهم لارتفاع الشاطئ وكثرة الأوحال .

وشنوا هجوما خاطفا علي ضواحي المنصورة ، وأسرع الأمير فخر الدين وفرسانه الذي لم يتوقع الهجوم من هذه الناحية .. وقضي علي الأمير وفرسانه بعد معركة دامية .. وأغري ذلك الفرنسيين للتقدم داخل المنصورة ، وتغلب رأي المنادين بالإسراع بالهجوم . ففي صبيحة الثلاثاء الثامن من فبراير عام ١٢٥٠م، اندفعت ثلاثة فرق من الفرسان ، تؤلف طليعة الجيش الفرنسي . فرقة من الفرنسيين يقودها الكونت روبرت أرتوا شقيق لويس التاسع ملك فرنسا وفرقة من الإنجليز يقودها وليم طويل السيف حاكم مقاطعة سالسبوري بانجلترا وفرقة من الرهبان الداوية يقودها رئيسهم وليم دي سوناك.

وكانت كل فرقة مكونة من ثلاثمئة فارس .. وقد أبادها الأهالي فيّ شوارع المنصورة ، وقتل الكونت أرتوا ، وفقد وليم دي سوناك إحدي عينيه ، وقد ساعد بعض الفرسان ، علي رأسهم ركن الدين بيبرس البندقداري التي تولي قيادة الجيش المصري ، بعد مقتل قائد الجيش الأمير فخر الدين يوسف ، ويقدر ما قتل من فرسان العدو بحوالي ألف فارس ، وإن كان بعض المؤرخين يقدره بثلاثة آلاف فارس . ووصل لويس ورجاله جنوب بحر أشموم ، لايدري بما جري داخل المنصورة ، ويود استكمال بناء الجسر ليعبر المشاة .. لكن سرعان ما هاجمه المصريون .. وإزاء ما لحقه من هزائم تراجع إلي الضفة الجنوبية لبحر أشموم متكبداً خسائر جسيمة في العتاد والأرواح ، وغرق عدد كبير عند عبورهم البحر ، وزاد من خطورة الموقف أن المشاة وحملة القسي كانوا علي الضفة الشمالية مع دوق برجنديا عاجزين عن تقديم أي عون ، بعد أن مات جميع حملة القسي من الفرسان مع كونت أرتوا داخل المنصورة . وفي تلك الأثناء نجح الفرنسيون في إقامة جسر من السفن عبر عليه حملة السهام والمشاة لنجدة لويس وقواته .

بعدها انتقلت المبادرة إلي الجيش المصري ، ففي يوم الجمعة الحادي عشر من فبراير قام بمهاجمة المعسكر الفرنسي علي الشاطئ الأخر من النيل ، كان لويس قد أعاد تنسيق قواته في إحدي عشرة فرقة ، انتظمت عشرٌ منها علي طول الضفة الجنوبية لبحر أشموم في مواجهة المعسكر المصري ، أما الفرقة الحادية عشرة فعلي الضفة المقابلة .

وأمر لويس فرسانه أن يقاتلوا مترجلين لصد هجمات المصريين ، ولم يكن من سبيل إلي الاتصال بمعسكرهم في الضفة الشمالية إلا جسر خشبي صغير ، نجحوا في إقامته ، وكان الجناح الأيسر تحميه بعض الشئ فرقة حملة القسي علي الضفة الشمالية بقيادة دوق برجنديا ، أما الجناح الأيمن فكان مكشوفا أمام القوات المصرية .

وقسم بيبرس قواته إلي مقدمه وقلب ومؤخرة . كانت المقدمة مكونة من أربعة آلاف فارس ومن خلفهم المشاة وفي المؤخرة اصطفت جيوش أخري للمساعدة إذا دعت الحاجة .

وأصدر أوامره إلي عامة الشعب بعبور بحر أشموم وشن الغارات علي المعسكر الفرنسي لعرقلة نشاط مشاة الصليبين ، وعدم إتاحة الفرصة لها لمعاونة القوات علي الضفة المقابلة . وفي منتصف النهار اندفع الفرسان بتشكيلاتهم صوب الفرق الفرنسية ، فاندفع المشاة نحو فرقة كونت أنجو ورموه بالنار الإغريقية ، ثم انقض الفرسان وأنزلوا برجاله هزيمة قاسية إلا أن الكونت تمكن من الفرار .

وكانت فرقة جماعة الداوية قد أقامت حاجزا من المتاريس فأحرقه المصريون وأطبقوا علي رماة الفرقة وقضوا عليهم .

وصمدت فرقة جي دي موفوزان رغم الحرائق ، و تمكنوا من إخمادها ، ولم يتمكن المصريون من اختراقها .

وفتك المصريون بفرقة كونت بواتييه شقيق الملك ، وكانت من المشاه ، وتمكن قائدها من الهرب ، واخترق المصريون فرقة جوسران وكادت تبيدها لولا السهام من الضفة الأخري ، التي ساهمت في إنقاذ بعض أفرادها وإن كان قائدها قد مات . ولم يهاجم المصريون فرقة دي جوانفيل ، لأنها لم تكن في مواجهتهم. كما كاد المصريون يقضون علي فرقة وليم أمير الأراضي الواطئة لولا أن أسرع لمساعدتها بعض الفرنسيين .

وكان لما قامت به عامة الشعب من مناوشات للفرنسيين علي الضفة الشمالية ، أن أتاح الفرصة للجيش المصري أن يصول بين الفرق الفرنسية المصطفة أمامه وانتهت معركة يوم الجمعة بهزيمة ساحقة للفرنسيين ، وهي تعتبر من أشد المعارك وأعنفها في تاريخ الحملة الصليبية ، وفي تاريخ الكفاح ضد الاستعمار .

وكان توران شاه ، نجل الصالح أيوب ، قد حضر علي عجل من الشام ، ليتولي عرش مصر ، " ومن ثم أمر السلطان الجديد بصنع عدة مراكب حملت مفككة علي الجمال عند سمنود ، ونقلت عن طريق البر إلي بحر المحلة .. وهناك أعيد

تركيبها ، وأنزلت إلي بحر المحلة خلف المعسكر الفرنسي بعد أن تم تزويدها بالمحاربين وكان الغرض من ذلك عرقلة الغزاة بأسطولهم .. وبحر المحلة هذا الذي تستر فيه أسطول المصريين لاصطياد سفن العدو يخرج من فرع مليج عند قرية ضيا الكوم بالقرب من طنطا ويمر بقرية الهيثم ثم ببلقينة فالمحلة الكبري إلي أن يتصل بالنيل عند شرمساح " ص ٧٠ – هزيمة لويس . د.جوزيف نسيم *.

وتمكنت هذه السفن من قطع الإمدادات والمؤن عن معسكر الصليبيين عند المنصورة ، وشن الأسطول المصري عدة هجمات علي الأسطول الفرنسي ، تمكن في إحداها من أسر اثنتين وخمسين سفينة ، وخسر العدو ألف جندي ما بين قتيل وأسير ، وفي معركة أخري تم أسر اثنتين وثلاثين سفينة .

وأصبح الفرنسيون في موقف صعب ،، قواتهم تعاني من نقص الإمدادات والتموين، وتفشي المرض بين صفوفهم .. ومنوا بهزيمتين في الثامن والحادي عشر من فبراير . كانت لهم قوات جنوب بحر أشموم ، وكان لابد من الانتقال إلي المعسكر القائم علي الضفة المقابلة في الشمال ، حتي يمكن للقوات مجتمعة التراجع إلي دمياط . فعلوا ذلك والمقاومة المصرية لا تسكت عنهم ، وفي مساء الثلاثاء الخامس من أبريل بدأوا في التراجع نحو الشمال إلي دمياط ، وفي عجلتهم واضطرابهم لم يحطموا الجسر الخشبي ، وسرعات ما عبرت فوقه القوات المصرية ، وكبدتهم خسائر فادحة . وعند فارسكور أطبق عليهم المصريون .. وألحقوا بهم الهزيمة الثالثة علي التوالي وبلغت خسارتهم في القتلي عدة آلاف كما أسروا عدداً من مشاتهم وفرسانهم وصناعهم ، عدا الغنائم من الذخيرة والخيول والعتاد ، ولم يستشهد من القوات المصرية أكثر من مئة مقاتل .

وكان المرض قد اشتد بلويس ، فأخذه قادة جيشه إلي قرية ميت الخولي عبد الله ليستريح .

وكان لويس قد حاول فتح باب المفاوضات ، وعرض رسوله أن يعيد دمياط في مقابل أن تتنازل له مصر عن بعض المدن الساحلية في فلسطين ، وأن يخرج بما بقي من جنودة سالما من مصر . لكن مصر رفضت .

وسرعان ما أطبق الجيش المصري علي لويس وقادة جيشه وأخذوهم أسري إلي دارا بن لقمان بالمنصورة .

---

* هزيمة لويس التاسع علي ضفاف النيل – د. جوزيف نسيم يوسف .

ولقد ادت عوامل كثيرة إلي هذا النصر الكبير منها :

كان المصريون أبرع من الفرنسيين في الهندسة ، فقد أقام العدو أحد أبراجه علي جانب من ترعة ، دون إدراك لطبيعة الأرض القريبة من النيل ، وسرعان ما قام المصريون الذين يدركون طبيعة الأرض بالحفر ليندفع الماء وينهار البرج ، ويظل البرج المقابل له وحيدا ، وليظل الفرنسيون عاجزين عن إقامة جسر بينهما، تعبر عليه مشاتهم ، فترة طويلة .

كانت مفاجأة الحرب " النار الأغريقية " وهي كرات عظيمة من اللهب ، لها ذيول من النار ، لم يكن للفرنسيين دراية بها . كان المصريون يطلقونها من الأبراج الخشبية العالية ، فتحدث الحرائق والدمار في معسكر العدو .

أما مفاجأة الحرب الحاسمة ، فكانت المقاومة الشعبية " إذ أقام الأهالي المتاريس في الطرقات .. وكانت النساء إلي جانب الرجال يحفرون الخنادق ويقيمون الموانع حولها .. واتخذ السكان من منازلهم حصونا ومن شرفاتها قلاعا . وأخذوا يرمون الفرنسيين بالقذائف والأحجار والطوب وحفن التراب من الأسطح والنوافذ ، ويرشقونهم بالسهام والرماح والنشاب .. وأخذتهم السيوف من كل جانب ، فهوي كثير من فرسانهم عن جيادهم صرعي .. كما أن خيولهم الضخمة لم تتمكن من التجول بين الأزقة والدروب ، فاختل نظامهم ، وازداد موقفهم خطورة " ص ٥٥ ـ هزيمة لويس ـ د. جوزيف نسيم .

أضف إلي ذلك نظام تسليح فرسان العصور الوسطي الذي يُغطي أجساد الفرسان بالدروع الثقيلة ، ويحملون حرابا كبيرة ، وكل هذا لا يمكنهم من سرعة الحركة، والمناورة في شوارع وحارات المنصورة الضيقة .

ولقد أخطأ الفرنسيون بمكوثهم شهور طويلة في قبرص ودمياط دون عمل ، مما اتاح الفرصة لحياة الإبتذال التي غرق فيها قادتهم وجنودهم من خمر ونساء وسلب ونهب .

وكان لقيام الأهالي بالجهد الكبير في حمل المؤن ، وحمل الجرحي، وإقامة الأبراج الخشبية ، لرماة السهام والقسي ، وكذا قتالهم في شوارع المنصورة ، أثر كبير في ادخار قوة الجيش المصري ، التي ظلت غالبيتها متربصة في معسكرها ، سالمة ، وشنت هجومها الكبير يوم الحادي عشر من فبراير ، وهي في كامل استعدادها .

كما كان للإغارات التي شنتها المقاومة الشعبية ، علي معسكرات الفرنسيين ، قبل القتال ، وأثناء زحفهم من دمياط أثر ، في النيل من روحهم المعنوية وفي

إحداث خسائر بين رجالهم وعتادهم ، وكانت المقاومة تبتكر كل يوم جديداً للنيل من العدو .

يذكر أن أحد أبناء المنصورة ، أحضر بطيخة ، وجوفها ، ووضعها علي رأسه وسبح في بحر أشموم ، مبرزاً البطيخة فوق سطح الماء ، فنزل فرنسي إلي الماء من الجهة المقابلة ، ليقتنص البطيخة ، فقبض عليه المنصوري ، وأخذه أسيراً .

كما كان للقيادة الحكيمة لشجرة الدر ، أثرها في سير المعركة ، فقد سيطرت علي قادة الجيش بحزم ، واستطاعت إخفاء خبر موت الصالح نجم الدين أيوب وإن كانت بعض المصادر ترجح أن الخبر قد تسرب للفرنسيين.

وكان ما فعلته شجرة الدر ، لتخفي الخبر ، أن وضعت جثة الملك في تابوت وأرسلتها سراً إلي قلعه المماليك البحرية بجزيرة الروضة ، وجعلت الأطباء يعودون الملك في حجرته كأنه موجود ، ومدت سماط مائدته يومياً للأمراء ، كما كان يفعل ، واستمرت خطبة الجمعة في المساجد باسمه ، واسم ولي العهد توران شاه ، واستمر اسم الملك ينقش علي الدنانير والأوامر تصدر باسمه وكانت شجرة الدر ، البارعة في الكتابة ، تقلد علامة السلطنة ، وكان خادمه صواب السهيلي يقلد توقيع الملك .

وكان لتلاحم جميع طوائف الشعب ، أثره ، لا سيما الوحدة الوطنية ، بين عنصري الأمة ، المسلمين والقبط ، فالأخيرين " لم ينسوا الأضرار الجسيمة التي لحقتهم من الفرنجة أنفسهم الذين كانوا يغيرون علي الديار المصرية من وقت لأخر ، ويعيثون فيها فساداً دون مراعاة لحرمة بيوت الله من مساجد وكنائس .. وهم لم ينسوا أيضاً أن الصليبيين عندما استولوا علي بيت المقدس في بداية حركتهم العدوانية ، منعوا القبط من زيارة الأراضي المقدسة والحج إليها ، فلم يدخلوها حتي استردها منهم صلاح الدين الأيوبي .. وهم لم ينسوا كذلك أنهم كانوا في نظر الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ضالين عن جادة الدين الحقيقي مما جعلهم مكروهين في الأوساط اللاتينية لأنهم علي غير مذهبهم " ص ٥٦ ـ هزيمة لويس ـ د. جوزيف نسيم .

وكان لما قام به السوريون ، عندما استولوا علي صيدا من الصليبيين ، حال سقوط دمياط ، وفي توجيه ضربات شديدة لباقي ممتلكاتهم ، أثر كبير في رفع الروح المعنوية في مصر ، وفي منع الإمدادات من الشام للفرنسين في مصر .

وفي صباح السابع من مايو عام ١٢٥٠ م ، أوفد لويس احد رجاله إلي دمياط

لتسليمها للمصريين ، بعد اتفاق الطرفين علي ذلك ، وعلي دفع فدية مقدارها ٨٠٠ ألف دينار ، يدفع نصفها مقدما ، وبعد أن تم ذلك ، أفرج عن لويس " أما بقية الأسري – وعددهم أكثر من اثني عشر ألف أسير – فقد ظلوا في الأسر لحين دفع باقي المبلغ المطلوب " ص ٢٠٧ – الأيوبيون والمماليك – د. سعيد عاشور .

وبمغادرة حملة لويس ، مصر ، عم أوربا مأتم كبير ، كما جاء علي لسان مؤرخيهم ، ولم يمض وقت كبير ، حتي انتهي وجود الصليبيين في الشام . ففي ١٨ مايو عام ١٢٩١م ، أي بعد واحد وأربعين عاما فقط من معركة المنصورة ، تمكن سلطان مصر الأشرف خليل قلاوون من الاستيلاء علي آخر حصونهم الحصينة في عكا ، وبعدها انحسر وجودهم نهائيا في الشام ، وظلت أوربا ، لمدة خمسة قرون كاملة لا تعتدي علي الشرق ، إلا أن جاءت حملة نابليون بونابرت ، تدك بمدفعها مدينة الاسكندرية في أول يوليو عام ١٧٩٨ م ، زاعما أنه يود إقامة حكومة أهلية في مصر ، وتخليصها من المماليك ، ويبدأ فصل جديد من الاعتداء الأوربي الاستعماري علي الشرق .

كانت معركة المنصورة المجيدة في الثامن من فبراير عام ١٢٥٠ م .. معركة فاصلة في التاريخ .. انتقل الميزان الاستراتيجي لصالح مصر والشرق العربي ويكفي أن نعرف أنه بعد معركة المنصورة بعشر سنوات ، كان الجيش المصري، يخوض معركة فاصلة أخري ، بنفس قادة معركة المنصورة ، وكأنهم كانوا يتمرنون فيها ، لصد خطر المغول * .. وأحرزت مصر انتصارا تاريخيا في " عين جالوت " بفلسطين عام ١٢٦٠ م ولا شك أن الانتصار الكبير في المنصورة، قد أعطي دفعة معنوية هائلة للانتصار علي المغول .

و تمكنت مصر في عقد واحد من الزمان ، من إنقاذ الشرق من الصليبيين وإنقاذ الشرق ، وأوربا من خطر المغول ، الذين كانوا يعتزمون ، جعل مصر نقطة وثوب إلي أوربا .

---

* ويطلق عليهم " التتار " وهي كلمة تعني الصوت العاصف ، أو القوم الذين يثيرون الرعب والدمار .

المراجع

- تاريخ الحملات الصليبية – ستيفن رانسيمان – ترجمة نور الدين خليل جزء ١ طبعة ٢ – ١٩٩٨ – (دون جهة نشر) . الطبعة الأولي من هذا الكتاب صدرت عن هيئة الكتاب عام ١٩٩٤ .
- الحملة الصليبية الأولي وفكره الحروب الصليبية – جوناثان ريلي – سميث . ت : د. محمد فتحي الشاعر هيئة الكتاب ١٩٩٣ – الألف كتاب الثاني ١٢٩ .
- حضارة مصر – د. سليمان حزين – مطبوعات مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٥ .
- رؤية اسرائيلية للحروب الصليبية – د. قاسم عبده قاسم – دار الموقف العربي ١٩٨٣ .
- الأيوبيون والمماليك فى مصر والشام – د. سعيد عاشور – دار النهضة العربية ١٩٧٠ .
- هزيمة لويس التاسع علي ضفاف النيل – د. جوزيف نسيم يوسف – مؤسسة المطبوعات الحديثة (دون تاريخ) .

(خرائط الموج)
رواية لهذا الزمان

كثيرة هي الروايات ، التي تتحدث عن فقدان الهوية ، وعن البحث عن الجذور ربما من أشهرها ، رواية " الطريق " لنجيب محفوظ .. وتختلف رواية "خرائط الموج " الصادرة ضمن منشورات روايات الهلال عام ١٩٩٧م ، لسهام بيومي ، عن هذه الروايات . فالهوية واضحة ، والجذور ممتدة ، وبعمق ، لكن المشكلة ، أنها تطمس ، أمام أعين .. عدم الاهتمام ، والسياسة ، ومافيا المقاولات.

ولما كان ، لكل مكان زمنه ، تصطدم الراوية ، بالزمن ، وما تركه على المكان والبشر ، ولا تنجو هي وحبيبها يوسف من أثر الزمن ، فإذا كانا قد تحابا في زمن الصبا ، وتوثقت العلاقة ، زمن الرفع المعماري لكل عصر ، ومحاولة عمل خريطة لقاهرة الفسطاط والقطائع ، وأخرى للقاهرة الفاطمية ، وأخرى للقاهرة المملوكية ، وأخرى لقاهرة الخديو إسماعيل (ولم يدر بخلدهما القاهرة القبطية) ونسيا الأحياء العشوائية التي نمت على أطراف القاهرة .. " لقد انشغلنا بالقديم فقط ونترك الاحياء الجديدة في الأطراف التي عاصرنا بداياتها بعيدا عن مجال تفكيرنا ورؤيتنا حتى تمت صياغتها على هذا النحو ، وأصبحت أخبارها تترامى بشكل مفاجئ ومزعج " ص ٢١٤ .

فقد تداخل مع زمنهما ، ليزيحه ، زمن المقاولات والقرى السياحية ليفض العلاقة.

" – القصور .. القرى السياحية

– ذلك هو المتاح وهو مطلوب أيضا

– الخبرة تختلف ، وتفرض نفسها على أسلوب البناء ، أترى (أترين) كيف استخدمت نفس الطريقة في بناء القرى السياحية ؟ وكيف جعلت منها مافيا المقاولات.

والمنتفعون من حولها شيئا باهظا ؟ حتى يقال فيما بعد كيف تكون تلك عمارة فقيرة أو شعبية ، يسرقون أحلامنا ويمسخونها .

– كفى شعارات "ص ٧١.

حسم حبيبها يوسف الموقف " كفى شعارات " أو بلغة أخرى ، دعونا نعيش كما تفرض قوانين السوق .. ودعك من أحلامك بعمل عمارة نظيفة تحقق ذاتية وإنسانية الفقراء .. وتحافظ على طابع معمارى خاص بنا نحن المصريين .

وعمل الزمن فعله مع الراوية أيضا ." كنت أشعر بالضياع وافتقاد كل الأشياء الحميمة فى عالمنا .. لم تحاول أن تفهم ذلك ، والبقاء كان يعنى مزيدا من الضياع ." ٢٧٢

لقد ضاع يوسف وفقدته ، لأنه استجاب لنداء المقاولين ، الذين لا يهمهم سوى الكسب المادى ، ولم يراع مبادءه ، فى عمل شئ ينفع الناس ، بصرف النظر عن الكسب . وضاعت البطلة لأنها تمسكت بمبادئها ، ولم تيئس وحاولت عمل خرائط لموجات العصور المتلاحقة ، وهل يمكن عمل خرائط للموج ، الذى لا يكف عن الحركة .. وحين خيل إليها أنها نجحت ، كان المجتمع ينتقل إلي جهة أخري .. جهة مافيا المقاولات . فانتهي الأمر بالراوية إلي الوقوف فى مكان عام وبعثرة أوراقها وخرائطها وملاحظاتها ، التى بسببها أوقفوها عن العمل ، وحققوا معها فى قسم الشرطة .

ولقد استخدمت الكاتبة ، تقنية الرجوع إلى الخلف (الفلاش باك) بطريقة مختلفة عن السائد ، فهى لم تستخدمها لاجترار ذكريات ، تساهم فى بناء شخصية ، أو لتوضيح موقف ، أو استكمال معلومات ، ولكنها استخدمتها لتعميق شعورنا بالمأساة .

مأساة حبها ليوسف ، ومأساة عدم اكتراث البناء الحديث بالتراث المعمارى المتعاقب عبر العصور ، ومأساة البشر الذين يُطحنون نتيجة لذلك .. وكأنهم ليسوا من لحم ودم وأعصاب ، ففى ص٩٧ تحلم الراوية ببيت على النهر ، وتصف كيف كبرت مع يوسف فيه ، وكيف يعيشان بسعادة بعد عمر طويل ، تصف ذلك بإسهاب، وتفصيل ، كأنها عاشته حقيقة ، بينما المتلقى يعرف من ص ٧١ أن قصة حبها مع يوسف قد انتهت .

" – خضنا دروبا مسدودة كثيرة

– وقررنا أن نبيع أحلامنا لمن يدفع الثمن

– ماذا تتصورين أننا فاعلان ؟ البكاء على أحلام انتهى عمرها الافتراضي ؟ "

وثمة تقنية جيدة استخدمتها الكاتبة ، افتقدناها كثيرا ، فى الروايات التى تطالعنا هذه الأيام ، حيث الكلام خبري فقط .. وليست له أبعاد تتعدى المعنى المباشر لسطوره، " أرفع رأسي أرى أوراقا متناثرة فى كل الاتجاهات ، أمسك واحدة منها وأخرج ملتاعة ، أوراق الأبحاث والخرائط والتصميمات والملاحظات . أنطلق فى

كل الاتجاهات وأنا أحاول الإمساك بها ، أصرخ أن يحاول معي وهو ساكن مكانه وهي تتطاير ويرتطم بعضها به ، وقد استقر بعضها على صفحة المياه .. أجلس خائرة القوى وتنطلق دموعي ..

ــ ها هو كل شئ يضيع

ــ هذا ما كنت أخشاه

أمسح الدموع في عيني وأحاول أن أراه بوضوح " . ص ١٤٤

" ها هو كل شئ يضيع ؟ . ليست الأوراق والخرائط ، وكان الذى يضيع حقا ، المجتمع المصري ، الأحياء الأثرية ، وقد زاحمتها ، وبركت فوقها العمارات الحديثة ، دون تدبير أمكنة بديلة وإنسانية لمن يسكنونها ، هذا هو الضياع الكبير ، ناهيك عن فقدان تراث أمة عبر العصور ، وما يعنيه ذلك من فقدان الهوية .

" وأحاول أن أراه بوضوح " . ليست الرؤية الآنية ، لحظة تبادل الحوار ، ولكنها تحاول أن ترى ما آل إليه يوسف بعد ما رفض الشمار ، وماذا أصاب حبهما. إن الأمر يتعدى اللحظة إلى عمره معها كله .

وعندما هربت مها من زوجها وعائلته ، التي لحق بها الثراء ، فأصبحت تعاملها كخادمة اشتروها بمالهم ، بعد أن كانوا يخطبون ود عائلتها قبل أن يثروا ، نسمع هذا الحوار :

– لماذا ظلوا ساكتين حتى تفاقم الأمر هكذا ؟

– لا أحد يعرف بالضبط

– لم يكن ينبغي أن تفعل ذلك ، لكن يبدو أنها اشتكت كثيرا ، ولم يحاول أحد التدخل لحل المشكلة ، كان شكلها مبهدلا " . ص٢١٢

إن الحوار هنا يتعدى مأساة مها ، التي هربت من قيم الرأسماليين الجدد في معاملة الناس ، إنه تعليق أيضا على حوادث قام بها متطرفون إسلاميون ، من الأحياء العشوائية ، وسفكت دماء ، وسقط قتلى ، فكم شكا الناس ، ولم يسمع أحد ، ولماذا ظلوا ساكتين حتى تفاقم الأمر ، لا أحد يعلم أيضا ..!!

وبراعة هذا المقطع ، فضلا عن أبعاده ، تكمن في حرفيته أيضا ، فالحوار يدور بين الراوية وأبيها وعايدة ، ولكننا لا نعرف (بالضبط) من يقول لمن . أي أن أي مقطع من الحوار ممكن أن يصدر عني أو عنك وممكن أن يقوله الأب وممكن أن تقوله الراوية أو عايدة أي أن الشكوى عامة ، وجميعنا نشكو ولا من مجيب .

لا من مجيب ، لأن الأمر أصبح بيد من يهمه الربح أولا ، ولا يهمه أمر الناس .

" إن هذه الخبرة تتناقض مع اتساع نشاط المقاولات والشركات الكبرى ، وأثناء احتكاكنا بالناس وتبادل الحديث معهم كانت مطالبهم مرتبطة بما تطرحه هذه الشركات ، أما حلمهم الخاص فهو نماذج البيوت الأكثر ثراءً من بيوتهم بصرف النظر عن احتياجاتهم وما يريدونه لأنفسهم " ص١٤١

وهكذا تتعمق المأساة ، ويصبح الناس لا يعرفون ماذا يريدون ، أو ما الذى يصلح لهم . وتكون المأساة أشد وطأة ، حين يتخلى أصحاب الشعارات عن شعاراتهم، وها هى شلة الدراسة تتحدث ..

" - يقول عصام : ما رأيكم فى فيلا ليلى

- يقول مصطفى : فيلا السلام أو استراحة السلام " ص٢٣٦

أى أنهم يتخلون عن شعاراتهم وهم يعون جيدا ما يتم نسجه ليفقد هذا الشعب هويته ، ويكون لقمة سائغة لتنفيذ أطماع الصهاينة .

" أقول مارتا تقوم بدراسة الحفريات الأثرية فى سيناء ، أخبرتنى نهلة أنها صهيونية ، عبرت عن ذلك صراحة . واختيارها للآثار بالذات .. " من نفس الصفحة..

وبعد فقرة ، تقول تهانى " كارولين تركز على دور المرأة فى صنع السلام . يقاطع عصام بصوته المرتفع : وخالد يتفحص الموضوع ليبحث عن نصيب فى الوليمة "

أى أصبحت المبادرة فى يد العدو ، ولم نكتف أن نكون ذيولا لهم ، بل سقطنا فى درك أسفل .. ونبحث فقط عن الفتات ، فى ظل سلام كل همه طمس الهوية ، وترسيخ الاستيلاء على باقى فلسطين .. والاستعداد للانقضاض ثانية ، بل ثالثة أو رابعة ، على سيناء .

ويا للسخرية ، للتنمية ، التى يبشر بها شعبنا السادة الأمريكان . شقة مفروشة فى حى المساكن الشعبية ، بها مكتبة ، وقاعة للفيديو . ويتهم القائمون على المشروع الناس ، بفقدان وعيهم ، لعدم الحضور للإفادة فى تنمية قدراتهم البشرية .

ولم يسأل هؤلاء السادة أنفسهم : كيف يحضر الناس إلى شقتهم والطريق إليها عائم فى مياه المجارى ..؟!

أى تنمية لمجتمع ، تتكدس عائلات بيوته المنهارة فى المساجد ، وبين العائلة والأخرى ساتر من قماش .. ومعهم أطفال وبنات فى سن الزواج .. أية أخلاق وأية فضيلة .. ومع ذلك ، مهددون بالطرد من المساجد بين لحظة وأخرى ، حتى يتمكن المصلون من مباشرة شعائرهم ..!!

ولقد أسهبت الكاتبة ، وكررت دون داع ، من الحديث عن أبنية القاهرة وخرائطها دون أن تضيف جديدا إلى وعينا ، أو إلى وعى أبطالها . وكان أولى بها أن تهتم بما فى داخل شخصياتها . حقا أسلوب الرواية ، لا يساعد كثيرا على استبطان النفوس ، ولكنها بقليل من الحيلة ، كانت تستطيع ذلك ، كأن تسترجع حديثا دار بينها وبين يوسف ، مثلا تحدث فيه معها عما يدور بنفسه .. أو حيال حبه لها الذى أوشك على الانتهاء . كيف استطاع أن يضحى .. أو يتخلى عنها ، بعد كل سنوات الحب والزمالة فى الدراسة ، هل لم يغالب نفسه ؟ وكيف ، تغلغلت قيم البرجوازية الجديدة ، فى نفسه ، وقادته لعدم المبالاة بحب الصبا والشباب ..؟ أية

معاناة مر بها وهو يفعل ذلك . وكيف أمكن له أن يتخلى عن الشعار ، الذى كافح من أجله ، أيام الدراسة ..؟

أية شخصية هو .. هل الانتهازية قابعة فى أعماقه ، وكانت فى انتظار فرصة ، ولما حانت ظهرت .. أم هزمته الظروف وقهرته ، رغم إرادته ، أو رغم محاولة مقاومتها ، فسقط سقوطا نبيلا .. وكيف أجبرته الظروف على عدم التحرك ساكنا ، وهو يرى حبه ينهار أمام عينيه ؟

هل استسلم عند أول تحذير بضياع ، ما ظنه مستقبله ..؟ أم ماذا .. ربما نستطيع استنتاج شئ من هذا ، من خلال السياق ، ولكننا لم نعشه ، ولم نعايشه ، وبالتالى فالشخصية تظل على مسافة من الوجدان .. ويفقدها القارئ بعد حين من الوقت بسهولة .

وكذا ، بطلة العمل ، الراوية ، تمسكت بالشعار دوما ، وظلت مخلصة لمبادئها حتى النهاية .لكن كيف لم تواتها فرصة ضعف ، أو لحظة تردد ..؟ مع أن الضغوط عليها ولا شك كبيرة ، وكثيرة . ضغط شلة أيام الدراسة والعمل ، كلهم تزوجوا وبقيت هى . ضغط المجتمع ، ونظرات بعض أفراده الطامعة ، أو غير المستريحة ، لغير المتزوجة ، ضغط الحالة الاقتصادية ، خاصة ووالدها على وشك الموت ، وأخوتها تزوجوا وسوف تبقى وحيدة ، وضغط الوحدة نفسها .. وحاجتها الطبيعية للجنس ، والرفقة ، والمودة . إلحاح يوسف عليها ، رغم كل شئ ، لم يجعلها تعيد التفكير ولو مرة .

كانت الكاتبة ، تستطيع أن تجعل بطلتها تمر بهذا ، أو بعضه ، وتخرج منه متعافية ، أو نالت منها بعض الجراح .. عندئذ ، كنا سنحس بها أكثر ، ونتعاطف مع مشكلتها .. سواء فى الحب .. أو فى العمل ..

إن هذه البطلة ، لم ترتكب هفوة واحدة ، طوال رواية ، بلغت صفحاتها ٢٨٠ صفحة من القطع المتوسط ، ولم تتهم نفسها — مرة واحدة — أنها (بغبائها ، وعدم مسايرتها الجو) تسببت فى ضياع حبها .

ورغم كثرة الرفع المعمارى ، الذى جعلت الكاتبة بطلتها تقوم به ، فلم تتجول مرة واحدة ، سواء على الخريطة ، أو على أرض الواقع فى شارع من عصر معين. مع أنه على أرض الواقع يوجد شارع كامل من القاهرة الفاطمية عند الدرب الأحمر وبه بوابة الفتوح الشامخة وقصور ومساجد وخانقاه ، ما زالت بأحجارها على حالها ، شارع كامل مواز لشارع القلعة ، ويصل إليها ، لم تمش فيه الراوية ، مرة واحدة ، لنستشعر عظمته ، وعظمة التاريخ ، ونحس بمشاعر من يعيشون فيه حاليا ، حتى نستطيع أن نحس بمشاعر من هدمت منازلهم الأثرية وكيف يعيشون بعدها . إن بطلا واحدا من أبطالها ، لم يسر فى خان الخليلى ، وما يجاوره من حارات ضيقة ، ثعبانية ، عمارتها على حالها منذ عهد المماليك. كما توجد حارة الرويعى ، وحى كامل بين العتبة والفجالة ، نفس البيوت القديمة من القاهرة الخديوية، وما زال الناس يعيشون فيها بنفس الطريقة تقريبا ، وربما بنفس القيم

والمشاعر .. وكذا الأحياء التى اختلطت بها العمارة الحديثة بالقديمة، كالسيدة زينب مثلا ، أو بعض شوارع غمرة.. ما هى مشاعر سكان الأحياء المختلطة وكيف يفقدون الهوية فى تلك العمارة المختلطة ، ثم الأحياء الجديدة كالمهندسين .. وكيف تختلف مشاعر ساكنيها عن مشاعر ساكنى السيدة زينب والقلعة ؟!

لقد تحدثت الكاتبة كثيرا ، عن فقدان الهوية ، بفقدان طراز العمارة ، وكانت عندها فرص ذهبية لتقديمها على الطبيعة فى مشاهد حية ، بدلا من تركيز همها كله على المشاكل البيئية الناتجة عن ذلك .. مثل طفح المجارى .. والبلطجة والتطرف . وتكديس العائلات فى أماكن ضيقة ..

لقد اهتمت الكاتبة بالرفع المعمارى ، ولم تهتم بالرفع النفسي لنرى كيف أثر كل طراز معمارى على معاصريه ، وكيف ما زال يؤثرعلى ساكنيه ، وما هى خسارتهم حين فقده ..

على أي حال ، لا أعتقد أن هذه الملاحظات ، تقلل من روعة الرواية ، جدة فى الموضوع ، فهو لم يطرق من قبل ، وجدة فى استعمال تقنية مطروقة حقا ، ولكنها هنا بشكل جديد . وتوفيق فى استخدام الفصحى فى الحوار .. فصحى طيعة ، أقرب إلى اللغة المنطوقة ، جعلت العمل كله نسيجا لغويا واحدا .. على خلاف الروايات التى تستخدم العامية فى الحوار ، فيبدو النسيج غير مستو ، وكأنى بهم – هؤلاء الكتاب – يصرحون أن الفصحى غير قادرة على الوفاء بمتطلبات الحوار ..؟!

ولنستعد ما قاله أحد أبطالها :

" آه تلك هى المشكلة ومشكلة مافيا المقاولات أنها لا تتيح الفرصة أمام من يتبنى وجهة نظر الناس ، لأنها لو تحققت فستهدم أسسا كثيرة وتطرح البديل الأنسب والأجمل ."

فمن يا ترى .. يتبنى وجهة نظر الناس ؟!

أو من يا ترى سيساعد على تبنى وجهة نظر الناس ..؟!

ومتى .. يا ترى .. ؟!!

مشتهيات

سهام بدوى

كأنما كتب على المرأة أن تكون مشتهاة فقط .. أما كونها إنسانة ، وتود أنْ تحقق ذاتها فى العمل والحب ، فهذا يحول بينها وبينه ، التخلف الاجتماعى ، والظرف غير الديمقراطى .

ولن تجدى ، أية أفكار تقدمية ، ما لم يعتنقها المجتمع ، فريدة بطلة رواية " مشتهيات " والتى نعرف باقى الشخوص من خلالها ، قال عنها بعضهم أنها شيوعية، وهى تقول عن نفسها " أنها لا تعرف الفرق بين الشيوعى والليبرالى ، ولكنها انخرطت فى إحدى الخلايا الشيوعية ، النشطة فى معارضة " كامب ديفيد " .

وحين أرادت فريدة الزواج ، اختارت الليبرالى ، ابن تاجر السمك المليونير ، ربما هربا من فقر وقسوة أبيها المساعد بالجيش ، وتنكرت لمبادئها ، لكنها دفعت الثمن غاليا ، فما ظنته زواج مصلحة ، أهان جسدها ، وأهدر أنوثتها . زوجها مشغول بمشاهدة الأفلام الجنسية ، كل ما يهمه ، متعته ، سواء معها أو مع الأفلام ، والأمر لا علاقة له بإنسانيته ، ومتخليا ــ فى الوقت نفسه ــ عن إنسانيته .

تهرب فريدة من هذا الجحيم ، إلى ما توهمته ، حب يوسف لها ، زميلها فى الخلية الشيوعية ، سابقا .

وبعد السقوط ، تكتشف أنه لا يختلف عن زوجها ، فهو طالب متعة أيضا لا تحقق إنسانيا ، وإن كان طلبه ، مغلفا بالمكر والخديعة .

فالتحقق مستحيل مع الليبرالى اسما ، هو فى الواقع ليبرالى مشوه ، نتاج حمى الاستهلاك والبضائع الأجنبية فى بورسعيد ، دون مردود وطنى ، ومستحيل أيضا ، مع شيوعى ، سقط تنظيمه ، أو انحل ، تحت ضغط نفس الظرف الاجتماعى .. ولم يصمد أعضاؤه للمقاومة ، أو على الأقل الأعضاء الذين عرفناهم فى الرواية .

وتسقط البطلة ، تحت ضغط الظرف الاجتماعي . وإن كانت الكاتبة ، لم تعفها ، من مسئوليتها الفردية ، فهى أنانية ، حين تخلت عن أفكارها ، رغم نصح الأصدقاء والزملاء لها ، وتزوجت بابن التاجر .

وهى غير أخلاقية ، حين خانت هذا الزوج ، ساعية إلى التحقق ، وإن كانت لم تر فى أعماقها ، فرقا ، بين الزوج والعشيق ، فكلاهما يستبيح أنوثتها ، دون أن

يحقق لها إنسانيتها ، ونفس عدم التحقق ، حدث لبطلة سهام بيومى فـــى روايتـــها " خرائط الموج " لكن الفرق بين البطلتين ، أن بطلة الموج . قاومت ، ولـــم تسـقط ، رغم إغراء حب يوسف الشيوعي أيضا ، ورغم وحدتها ، فقد تزوج الأصدقاء جميعا تقريبا ، ورغم تبرير يوسف لتخليه عن مبادئه ، أنه يساير الوضع الجديد ، أى مـــا يجنبه من مكاسب الانفتاح الاقتصادى على شــركات غربيــة ، مشــتبه بنشــاطها وأرباحها ، ومع ذلك لم تتزوجه ، واحتفظت بكيانها نظيفا . فهى أكثر وعيا من بطلة " مشتهيات " وظلت تقاوم وحدها . وفى النهاية ، تعرض نفسها ، لمحرقة فى ميـدان عام ، يأسا ، أو احتجاجا ، على مجتمع كافحت من اجل تقدمه . وبـــدا ان احـدا لا يحفل بها .

أما بطلة " مشتهيات " فسقوطها كان طريقها إلى الوعى . وفى النهاية ، تتمســك بالأمل فى تحقيق إنسانيتها ، فى صفحة ١٥٠ ، وقد تعبت فريدة من الأيــادى التــى أهانت جسدها ، تتطلع الى أياد (أخرى أراها وحدى ، أتمناهـــا ، أقبلــها ، الكــف والأنامل ، أعشقها ، أترك لها وجهى . أجدها نصيرتى هى الواهنة دونى) .

وقبل ذلك ، تناجي نفسها فى صفحة ١٤٨ (فريدة أين لياليك كاملة النور ؟ هــل تعرف حياتك شيئا كاملا) إنها تتطلع إلى الحياة كاملة ، وترفض أنصاف الحلــول ، وما زالت تأمل فى أياد تعامل جسدها باحترام ، وحب وحنان ، بدلا من أيدى أبنــاء التجار والانتهازيين والمتعطشين (قريبها وهى صغيرة) والتى لا تسبب لها ســوى الألم والمرض النفسي والبدنى ، حيث بدأت تتردد على الأطباء .

وإذا كان يوسف " خرائط الموج " يبرر تخليه عن مبادئــه ، بمســايرة الســوق ليكسب عيشه ، لعل البطلة توافق على الزواج به ، فيوسف " مشــتهيات " لا يــبرر شيئا ، وحتى لم يسأل بطلته الزواج بعد الخلاص . هو فقط سوف ينظر فى الأمــو ، إذا حدث الطلاق .

ولست أدرى .. لماذا يسمى الشيوعى دائما " يوسف " ؟

هل هو استدعاء للتراث ، يوسف التراثى وقع عليه غبن ، وانصف بعد ذلـــك ، فهل هذا إشارة الى أن ما وقع من غبن على الشيوعيين ، سوف ينزاح ، أم أن الأمر لا يعدو ، طرازا سائدا ، باستخدام هذا الاسم ، لحملة هذه المبادئ ، فبطـــل " مـــالك الحزين " لأصلان اسمه يوسف أيضا ، وهو وإن كان غير شيوعى ، إلا أنه تقدمى ، يخرج فى المظاهرات ،ومحسوب على اليسار .

ونرجو ألا يتحول اسم فريدة ، إلى طراز أيضا يطلـــق علـــى الشـيوعية ، أو التقدمية ، خاصة بعد أن طهرها الألم ، الذى عانته مـــن زيجتـــها الفاشــلة ،ومــن سقوطها، فى حب يوسف المخادع ، الذى هجرته إلى غير رجعة ، كما طلقت مـــن زوجها ، بعد أن تخلت عن أى حقوق مادية ، ولكنها كسبت نفسها ، وكسبت الأمـــل فى التطلع إلى حياة تحقق فيها إنسانيتها .

(صدرت الرواية عن سلسلة أصوات أدبية – نوفمبر ٩٧)

ثائر وأربع نساء

" كانت تلك المرأة الصغيرة قد اختلفت مع ذلك الشاب الطالب الذى يلملم ملابسه على أجرتها ،فاندفعت شبه عارية إلى غرفتنا وهى تقول :

ــ يريد أن يسرقنى

ــ لن تأخذى أكثر من ذلك

بعد لأى تمت تصفية الموضوع وذهب كل إلى مكانه "

هذا المقطع من صفحتى ١٤٩ ، ١٥٠ من رواية رمضان الصباغ " ليلة رأس السنة " لا يلخص روايته كلها ، فحسب ، بل يكاد يلخص حياتنا برمتها فى العقود الأخيرة .

الطالب مع زملائه ، من صناع الانتفاضة الشعبية فى ١٧ و ١٨ يناير ٧٧، التى قامت احتجاجا على رفع الأسعار ، وكان الطلبة دوما رافضين لأى تصالح مع العدو الصهيونى ، وضد الانفتاح الاقتصادى ، الذى أغرق بلادنا بسلع ترفيهية ، وببضاعة أضرت الصناعة الوطنية ، خاصة صناعة النسيج . وقوبلت الانتفاضة بالرصاص والسجن والتشريد .

ومع هذا ، يمارس هذا الطالب ، المقهور ، قهرا على من اضطرتها ظروفها الاقتصادية أو الاجتماعية ، إلى ممارسة الدعارة " يريد أن يسرقنى " أى لا يريد أن يمنحها ما تستحق من أجر .

" وبعد تصفية الموضوع " بعد أن انتهى الاحتجاج " ذهب كلٌ إلى مكانه " عاد الطلبة إلى الدراسة ، وعادت البرجوازية الكبيرة إلى مداومة اتصالها مع العدو الصهيونى ، وإلى قهر الطبقات الشعبية ، التى عادت إلى ممارسة حياتها البائسة ، وإلى قهر بعضها بعضا .

ولكن .. هل عاد كلّ إلى موقعه ، دون أى تغيير ، أو تقدم ؟!

سوف نحاول ، تلمس الإجابة ، فيما يجتره راوينا " رفعت المصرى " أثناء عودته بالقطار من سوهاج حيث يعمل ، إلى القاهرة ومنها إلى الإسكندرية ، المدينة التى أمضى فيها فترة دراسته العليا فى جامعتها ، والتى شهدت اشتراكه فى انتفاضة يناير ١٩٧٧ .

هو الآن مكتئب ، أخبره الطبيب ألا رجاء فى شفائه ، ولم يصرح لنا بماهية مرضه ، ومع أن الرواية تبلغ ١٧٩ صفحة من القطع المتوسط ، فنحن لا نعثر إلا

على نصف سطر بعد منتصف الرواية ، يشي بشئ ألم بإحدى رئتيه ، وأن الجراحة، لن تشفيها .

ألا يجعلنا ، عدم الإفصاح عن علته الجسدية ، نرجح أن علته الحقيقة ، والتي ربما أدت ، لما يشعر به من ألم جسدى ، هى العلة السياسية ، التى يجتر أحداثها طوال رحلته الليلية ، وبين إغفاءة وأخرى . ويطبب هذه الكفة أن الراوى اسمه " المصرى " أى أنه يحكى عن علة مصر كلها ، وهى الفساد السياسي . نعانى معه انشقاقه عن أحد التنظيمات اليسارية ، ضيقه بالانقسامات والاختلافات المزمنة بين أعضائها ، وننفعل معه ، فى صفحات نابضة بالحياة ، فى الانتفاضة الشعبية فى يناير ٧٧ ، عندما رفعت الحكومة الأسعار فجأة ، واندلعت مظاهرات من مختلف الطبقات الشعبية ، وكان لطلبة الجامعة فيها نصيب كبير . واضطرت الحكومة إلى التراجع ، وانتصر الشعب ، ولكن الانتصار لم يكن بلا ثمن . قبض على الكثيرين ، وتشرد آخرون ،وسقط بعض القتلى والجرحى .. ورغم إجادة المؤلف فى هذه الصفحات ، نجده فى صفحة ١٣٠ يقول :

" لكن الأمور خارج السيطرة الآن ، عشرات القيادات لا نعرفها ، ومئات الشباب يهتفون ويرفعون الشعارات ، إنها انتفاضة حقيقية " . وماذا كنت تفعل يا عزيزى وأن تصف الانتفاضة ، حتى تخبرنا فى النهاية " أنها انتفاضة حقيقية " أم تراك تود التأكيد على نفى ما أشاعته السلطة وقتها " أنها انتفاضة حرامية " أو ما كتبه روائي سكندرى هو سعيد سالم فى روايته " جلامبو " ، مخطئا المظاهرات ، رغم اعتراف الحكومة بالخطأ فكان ملكيا أكثر من الملك .

ويمارس رمضان الصباغ هوايته فى التصريح ، بما علمنا من متابعة الأحداث ، ومعايشة الشخصيات ، فيقول فى صفحة ٢٣ " إننا أبناء جيل انكسر مبكرا ، وكان انكساره مدويا " وفى موضع آخر من نفس الصفحة " أما سهام هذه فهى تحمل تاريخا مريرا من الانكسارات ربما يكون أكثر منا جميعا " .

ونعيش مع الراوى علاقاته النسائية ، أيام الجامعة ، وبعدها . سحر الرومانسية ، وصفية التى تميل إلى الحسية وإن كانت لا تخلو من رقة ، وحيرة البطل بينهما . فهذه ترضى نزعته الروحية ، وتلك تشبع حاجته الجسدية .

وأزعم أن الراوي ، يحاول خديعتنا بحيرته بينهما ، لكن الحقيقة التى تأبى نفسه الاعتراف بها ، هى تطلعه لفجر العدالة الاجتماعية ، فالسحر هو الفترة التى تسبق الفجر بقليل ، فرفعت عضو التنظيم اليسارى ، الذى يسعى لإلغاء الاستغلال ، وإقامة عدالة اجتماعية ، يعلم تماما أن فجر العدالة الاجتماعية ، ليس فى متناول اليد، مثل الفجر الزمنى ، وأن دونه أهوال وتضحيات والمتطلبات البيولوجية للإنسان تلح عليه، ولابد من إشباعها ، لذلك ، فهو لا يتنازل عن صفية ، صفاء اللذة ، التى تسكره ، وإن كان لم يزل يتطلع إلى لذة أكبر ، لذة تحقق العدالة الاجتماعية على الأرض .

ومع خفوت الصراع فى الرواية ، تلاشى أثر الانتفاضة مع الوقت ، وانشقاق التنظيمات اليسارية ، بدلا من توحدها ، وغلبة الانتهازيين على المشهد ، يجسده درويش ، المستفيد من أى وضع ، يتناسى الراوى " سحر " ، وتتسع المسافات ، ولا يصبح الفجر على وشك البزوغ .

وها هو البطل يتزوج ، أى شدته متطلبات الحياة العادية ، تكوين أسرة ومحاولة الإنجاب . ولكن لأن الزواج تعاقد بين طرفين ، تعاقد قائم على المصلحة والمنفعة المتبادلة ، لا يوفق البطل ، وينهار زواجه ، ويخرج منه خالى الوفاض ، فتطلع دخلته التى لا يصرح بها ، إلى الحب .. إلى التحقق الإنساني والجسدى معا ، جعل زواجه ينهار .

فكانت شمس .. والشمس هى التى نستمد منها أسباب الحياة .. ولما كانت شمس لا تتطلع إلى الزواج ، وتريد الحب فقط ، فقد استمرت علاقتها بالبطل ، وأصبحنا نعرف داخلة المتطلعة للحب والتحقق بجلاء .. وإن كنا لا نعرف لماذا ترفض شمس الزواج ، نعرف أنها مرت بتجربة خطوبة فاشلة ، ومحاولة للزواج لم تنجح . وليس هذان سببين كافيين ، لرفض الزواج ، خاصة ونحن نعرف عنها ما أعلنته هى عن نفسها أنها ترفض الزواج . لم نعرف ماذا يدور فى نفسها ، هل هى ثائرة على فكرة الارتباط الأبدى (الأرثوذكسي) ، هل ثمة جذور فى حياتها لا نعرفها ، تركنا الراوى دون جواب . نعلم أن استدعاء الأحداث يتم من خلاله ، ومن الصعب أن يخبر حقيقة ما يدور فى نفس أخرى . لكنه كان يستطيع أن يخمن ما يدور ما فى نفسها ، أو يجعلها تفصح عن مكنونها فى جملة حوارية ، أو خلجة نفسية .

ولا شك أن هذا ، سيكون أفضل مما فعله فى صفحة ٢٨ ، حين تغلغل فى نفس مدام كاترين " ولكن وهى ترمق درويش بنظرات حادة ربما تريد أن تسبر أغواره ، وهى تسائل نفسها هل فعلا درويش مجرد ساذج ..؟ أم ماذا يكون .. ؟ وهل يستمر هكذا .. ؟ كانت غابة من الأسئلة فى رأسها "

كيف ، وهو " الراوى " راصد من الخارج ، أن يعلم ما يدور فى نفسها بهذا اليقين ؟

وحيث أن الرواية ، لم تخبر بشئ مما يدور فى نفس شمس ، فلنا أن نقطع أنها تود أن تُحب لذاتها ، فإذا كان الراوى يلقب بـ " المصرى " فلا شك أن هذا يعطى شمسا دلالة أكبر ، وراوينا الذي يود التحقق فى الحب وفى بناء وطن خال من الاستغلال ، تتيح علاقته بشمس ، الخالية من أى منفعة مادية ، له قدرا من التحقق ، فشمس هنا وطن .. وخلاص .. وحرية .

وإذا لاحظنا ، كيف أن الرواية لم تدل بأى معلومة عن طليقة رفعت ، سوى أنها جردته من كل ما يملك ، ولم يرد ذكرها أثناء الانتفاضة ، أو أثناء جلوسه مع المناضلين فى المقاهى المختلفة ، بل نحن لا نعرف حتى اسمها ، أى أنها لا تعنى أى شئ ، سوى المصلحة المباشرة ، المعيشة العادية والتناسل ، إذا علمنا ذلك .. فلنا أن نعرف ماذا تعنيه شمس للراوى ولنا .

ولاحظ أيضا أن الراوى ، تحرك فى علاقات نسائية أربعة مثلما يسمح الشرع بالزواج من أربع ، كأن الرواية تود أن تخبرنا أن رحلة الراوى للتحقق رحلة شرعية ، وأن شمس حبه ووطنه ، هى فى نطاق الشرعية أيضا ، كما نلاحظ أنه لم ينسب شمس لأب أو جد ، وكذا سحر وصفية ، مما يعنى أنه يقصد الدلالة التى يحدثها الاسم منفردا ..

ترى .. هل فى هذا إجابة على السؤال الذى طرحته فى البداية ؟!

هل من الواضح أن الذين اشتركوا فى الانتفاضة ، لم يعودوا إلى نفس مواقعهم ، وأنهم تغيروا . رغم السكون على السطح ، والذى يشي أن كل شئ عاد كما كان " وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جئنا " ، إلا أن الحقيقة تنبئ بأنهم تغيروا ، ولم يعودوا إلى نفس المواقع ، فالراوى تحقق فى حب شمس ، وشمس ، الوطن والحب ، تحققت به، وما كافحوا من أجله .. تحقق بعضٌ منه .. فالاتحاد الاشتراكى (التنظيم الواحد) .. قد أصبح منابر .. وفى عقد تال تحولت المنابر إلى أحزاب .. وفى المستقبل سوف تصبح هذه أحزابا حقيقية تعبر عن مصالح مختلف طبقات الشعب .. ومعارضة الوجود الصهيونى ، حولت السلام بين مصر وإسرائيل إلى سلام بارد ، ومن المستحيل أن تجرؤ أى حكومة فى مصر على (التطبيع مع العدو الصهيونى)متجاهلة إرادة الشعب ، إذن فما زرعه رفعت وزملاؤه يزهر فى الأرض المصرية . وإذا كان الأمر كذلك ، فما سر اكتئاب راوينا ، وإصابته بالمرض ..السر، فيما أرى ، أن ما أراده رفعت ورفاقه ، لا يتحقق فى يوم وليلة ، ولكن كما رأينا تحقق بعض منه فى عدة عقود ، وحتى ننتصر انتصارا نهائيا على العدو الصهيونى ، وحتى تتحرر بلادنا من الاستغلال ، لا يعلم أحدٌ كم من الوقت سيمر ، وكم من التضحيات سوف تبذل .. أى أن الأمر يتعدى حياة إنسان .. وهذا ما يصيب رفعت باكتئاب فهو ولا شك يحلم ، مثل غيره ، أن يرى ثمرة كفاحه فى حياته ، وقد يحدث انفراج وهو يرى الأمل هناك فى الأفق .. ولكن كيف يستمر الانفراج ، وهو يرى الانتهازيين والأفاقين ، أمثال درويش ، ينعمون فى رغد العيش ، بينما هو وأمثاله ، يحصلون على ما يقيم أودهم بشق الأنفس ، وإذا كان بعضٌ مما نادى به قد تحقق (هامش من الديمقراطية) فإن بعضا أخر ، جرى فى الاتجاه المعاكس ، الانفتاح الاقتصادى ، وإغراق بلادنا بمصنوعات ترفية ، وإضرار الصناعة الوطنية، خاصة صناعة النسيج . إذن فله حق أن يكتئب ، ولكنه الاكتئاب الإيجابى ، الذى يحفز لتجاوز هذه السلبيات ، واستعادة زمام المبادرة .

وإذا كانت الطبعة التى بينْ أيدينا (الأولى) قد صدرت عام ١٩٩٨ عن " دار الوفاء " فى الإسكندرية ، فإن ثمة أمور كان ينبغى توضيحها ، إما فى ثنايا القص ، أو فى هامش ، لأنها لا تعنى شيئا للأجيال التى لم تعاصر أحداث الانتفاضة وماتلاها ، مثال ذلك ، فى صفحة ٤٢، " كان الجدل حادا بين الطلاب فالبعض يرى أن النظام لن يضحى بهيكل فى سبيل على أمين ومصطفى أمين " ما كان يمثله ثلاثتهم فى حينه ، غائبا عن شباب اليوم ، كان ينبغى على المؤلف توضيحه ، كما فعل بالنسبة لعمر التلمسانى وأخبر أنه مرشد للإخوان المسلمين فى صفحة ١٢٥.

ومثال آخر من صفحة ٨١ " أعطيتها رواية الكرنك لنجيب محفوظ قرأت بعض صفحاتها ثم أعادتها لي طالبة رواية لإحسان عبد القدوس " كأني بـه " المؤلف " يفترض أن الجميع قد قرأوا " الكرنك " أو حتى شاهدوا الرواية المأخوذة عنها في السينما ، وما فيها من سجن واعتقال ، وكذا يعلمون ما تحفل به روايات إحسان من مشاهد غرامية .

ويقول في صفحة ١٧٦ " التقيت مع جماعة الفنية العسكرية " ماذا تعني جماعة الفنية العسكرية لقارئ اليوم ..؟!

ومال المؤلف ، في بعض المواضع ، إلى تقرير ما يود الإفصاح عنه بدلا من تشخيصه ، أو جعلنا نستشفه من ثنايا الأحداث والحوار ، ففي صفحتي ٣٦ ، ٣٧ ، يقول " في السبعينات عندما اشتد عود اليسار ، وصار مسيطرا على الجامعة ، وخاصة الاتجاهات المتشددة منه ، وتغلغل في الحركة العمالية ، قام النظام بصناعة الجماعات الإسلامية لكي تقاوم المد اليساري ، جنبا إلى جنب مع الاتحاد الاشتراكي الذي يمثل النظام "

كما جنح المؤلف إلى تلخيص الأحداث ، مما سبب عدم معايشتها ، " معارك دامية في المصانع في الإسكندرية ، صدامات بين العمال والثوريين والنقابات والإدارة " ، صفحة ١١١ ، أو سبب غموضا مثل قوله في صفحة ١١٦ " والتكتل داخل الحزب لمجموعة ترى بعض الملاحظات على القيادات ، والمجموعة الثالثة والأكثر جذرية التي انشقت وتركت الحزب ، وبدأت تعمل منفصلة بعد أن أحست أن آليات الحزب تعوقها عن العمل والحركة .."

أي حزب .. وأية مجموعة ثالثة .. وأية ملاحظات ..

أو مثل قوله " كما أن نظام الفتح والقفل صار أفضل " ص ١٧٠ ، يقصد اتسعت مدة فتح العنابر ، بدلا من الإغلاق أغلب النهار .. كيف يعرف من لم يدخل السجن ذلك؟

وماذا يعنيه عدم الفتح . بدنيا ونفسيا ..؟

ومع أن الراوي يتحدث بضمير المتكلم ، كان الضمير يتغير أحيانا ، دون ضرورة لذلك ، يقول في صفحة ٣٩ " في تلك الأثناء كان رفعت المصري قد انضم إلى إحدى التنظيمات اليسارية "

وفي صفحتي ١٧٢و١٧٣ ، تتحدث الرواية عن محمد عبد المنعم الذي سرق سيارة ، ثم مورس معه الشذوذ الجنسي في السجن ، وما يفعله معتادو الإجرام ، دون أن يكون لذلك ضرورة ، كأن توظف لزيادة وعي الراوي مثلا ، أو مبررا لإحساسه بالكآبة فيما بعد ، فبدت هذه الفقرات زائدة ..

وبعد .. فقد كان ذكاء من المؤلف ، أن كتب اسمه على روايته ، مجردا من لقب دكتور ، فهو هنا يتقدم لنا كروائي ، وليس كأستاذ جامعي ، وحسنا فعل .

حنظل الشمال
ونفى العزلة

الأعمال الأدبية التى تدور حول الإنسان المصرى فى الأماكن المنعزلة البعيدة عن الوادى ، تثرى الأدب المصرى والعربى بوجه عام ، وتنفى العزلة عن تلك البيئات . عندما يزيد وعينا بإنسان النوبة ، كما فى أعمال محمد خليل قاسم وحجاج أدول ويحي مختار وغيرهم ، وبإنسان أسوان كما فى أعمال عبد الوهاب الأسوانى وأحمد أبو خنيجر وغيرهم .. وها هى رواية " حنظل الشمال " لـ حسن غريب " تأتينا من سيناء .. نافية عن إنسانها غربته ، وعن بيئتها عزلتها ، ومضيفة لوعينا الإنساني مزيدا من الإحساس بالجمال والبراءة .

تدور أغلب أحداث الرواية فى قرية الضهيرية مركز الشيخ زويد . فنجد أن القرية لا تختلف عن قرى الوادى فى زمن الأحداث من حيث استغلال الباشا " الإقطاعى " . هو فى الحقيقة المالك الكبير فلم تعرف مصر الإقطاع بالمعنى الأوربي، وهو ملكية الاقطاعى للأرض ومن عليها. ونجد أن هذا الباشا .يستغل أهل القرية ، ويستبيح نساءهم .

وبالطبع يقاومه أهل القرية ، فينجحون نجاحا باهتا ، قبالة من تستعده الشرطة والسلطة ، والزمن فى الرواية ، كاد أن يكون أسطوريا ، لولا إشارة عن الصول " سمعان " أنه يرتدى " بالطو " هدية من جمال عبد الناصر ، فنعلم أننا نعيش فى عهد، غير بعيد عن عهده ، وإشارة أخرى ، قرب نهاية الرواية تتحدث عن الإصلاح الزراعى الذى حد من ملكية الأرض الزراعية فى القرية ، وبالتالى بدأ الناس بعد أن تحرروا من ذل العيش تحت سطوة المالك الكبير ، ينزعون للتحرر المعيشى الاجتماعى .

والجنس فى الرواية ، موظف ليخدم مضمونها ، براءة الإنسان السيناوى ، ومدى شعوره بالقهر وكذا معمقا للدلالة الجمالية ، فالكاتب يستخدم الكلمة السيناوية (والمستخدمة فى بعض الدول العربية) التى تسمى عضو الذكورة " الإحليل " ولاحظ اشتقاق اللفظ من الحلال .. أى أن الجنس حلال للمرأة أو أنه الشئ الطبيعي ، لذلك لا نستهجن أو ندهش من سؤال سلمى عن ماهية الجنس ورد الخالة " سلمى " بكلمات صريحة نستشف منها أن الأمر عادى ، ونستشف مدى براءة " رابحة " التى

لا تؤهلها البيئة أو الثقافة أن تعرف شيئا عن هذا الأمر ، ويجعلنا هذا ندرك مدى بشاعة أن يغتصبها الباشا فيما بعد .. أى يغتال البراءة والفطرة . وتتعمق المأساة حين تدفع البنت الثمن فيقتلها أبوها وهو يعرف أنها بريئة .. بل لقد ساهم بتواطؤ خفى بتركه لها تعمل عند الباشا ، وهو يعلم عنه ما يعلم من سوء السلوك والسمعة حيال الفتيات والنساء ، وكنا نحب للأب أن يقاوم قليلا أو يؤنب نفسه أو يلومها قبل أن يدفع بابنته بسهولة لتعمل عند الباشا لقاء مائة جنيه فى الشهر ، وهو مبلغ كبير فى هذا الوقت كان حريا به أن يجعله يتساءل لماذا يدفع الباشا مبلغا كهذا ، وهو لم يعرف عنه الرفق بالفقراء ، إن لم يكن من أجل غرض فى نفسه .

ويستمر الجنس محركا للأحداث فى الرواية ، سواء عن طريق العلاقات المحرمة أو العلاقات المشروعة كالحب والزواج ، وليست صدفة أن يستخدم الكاتب لفظ " الإفريج " لعضو الأنوثة فليس اللفظ تحريفا لكلمة " الفرج" الفصحى بمعنى الفتحة أو الشق بقدر ما هو للدلالة على الفرج .. بعد أزمة أو شدة ، أو ليس الجنس فى بيئة مغلقة لا ترى فيها النساء الرجال بشكل طبيعي ولا يتلاقون بشكل عادى سوى أزمة تبحث عن الفرج سواء فى العلاقات المشروعة أو غيرها ..

فها هى الخالة " سعدية " تفك أزمة مصطفى الموظف الوافد من الوادى للعمل فى سيناء .، وفى الوقت نفسه تساعده فى الزواج من " معزوزة " ولاحظ الإسم .. من العزة ، وما تومئ إليه نهاية الرواية من زواج مصطفى ابن الوادى .. من العزة .. بنت سيناء ، ونفى عزلتها .. ومن جهة أخرى ، إيذانا أو بدء عهد جديد ، انتهى فيه الخوف من أبناء الوادى وعدم انغلاق سيناء على نفسها ، وزوال الحذر من الوافدين من الوادى ، سواء بسبب أفعال بعضهم الفاضحة كسرقة أحدهم لمصاغ عروسه والهرب ، أم للتقاليد البالية لانغلاق القبيلة على نفسها وعدم المصاهرة من خارجها..

وما يعنيه هذا من عدم الدوران فى حلقة مفرغة وإضافة دماء جديدة وعادات جديدة ، وبالتالى تخلّق إنسان جديد أكثر ذكاءً وأكثر وعيا ، والأهم من ذلك ، ميلاد جديد لسيناء ، ولابن سيناء ينهى عزلتها ويجعل احتلالها من قبل أى عدو خارجى كالصهاينة غير قابل للتكرار ..

ويستمر الروائي "حسن غريب " وبصورة رائعة ، فى العزف على وتر الجنس ، فها هو " حسان " ابن الشيخ "جمعة " رسميا ، يرث الباشا بعد أن كان يعمل عنده ويصبح رمزا للمستغلين الجدد بعد أن قلمت بعض الشئ أظافر الملاك الكبار ، تحت مسمي " رئيس القرية الجديد " ليواصل ما كان يفعله سلفه من اضطهاد وقهر طبقى. وحسان هو حقيقة ابن الباشا ، الذي اغتصب أمه قبل زواجها من الشيخ " جمعة " أى أنه استمرار جينى لما كان يحمله الباشا من رغبة فى التسلط والاغتصاب ، واستمرار للتقليد الرأسمالي في استخدام النفوذ بمضاعفة المال الذي وجده بين يديه .

ولكن الأيام والتطور يفعلان فعلهما وها هو الحب يخفف من غلواء " حسان " ، يبعده عن التجاوز فى حق الناس ، ويحصر همه فى التعلق بـ " هيام " النورية أو الغجرية .. ويهرب معها ليحقق ذاته فى حبها بعد أن رفض أبوه الزواج منها متمسكا بما يليق ، وما لا يليق ، وهو اللص والقواد السابق .. لكن النورية وقد هربت من "

حسان " .. والتقت بنى جلدتها فى مكان آخر ناحية بلبيس .. تطمع فى مال "حسان".. وتحن إلى بنى جلدتها .. إشارة إلى أن التطور لم يعمل عمله معها ، ومع قومها ، المستلبين دوما ، وإشارة إلى أنه لابد من القضاء على سليل الباشا " حسان " .. وربيب الشيخ " جمعة " اللص .. فيقتل " حسان " .. لكن هيام لا تنجو بفعلتها فيلاحقها الشيخ " جمعة " حتى يقضى عليها وعلى من عاونها .. أى يفتك الشر ببعضه بعضا ولابد من تطهير البيئة حتى ينمو النبت الجديد . حب معزوزة .. التى بدا أنها تتخلص من ميراث أبيها " الشيخ جمعة " فهى لا ذنب لها فيما اقترفه .. فهى المولودة فى سيناء بنت البيئة الجديدة ، والتى تزداد جدة كل يوم بعد تحريرها من ربقة المالك الكبير وبعد تحريرها من دنس الاحتلال الاسرائيلي وقدوم الشباب من وادى النيل للعمل بها ..

ولقد وُفق الروائي " حسن غريب " فى تقديم جو روايته وتقديم شخصياته بحيواتهم البسيطة وآمالهم المتعلقة فى الانعتاق من قهر الحاجة ، والتحقق فى الحب.. تَزَيد قليلا .. عندما جنح " حسان " و " هيام " إلى السويس ومعاشرة " هيام " لولد سويسي من مدمنى المخدرات ، فلم يقدم هذا جديدا لجو الرواية يدفع أحداثها وكذا لم يعمق أو يقودنا إلى منحى فى شخصيتي " حسان وهيام " لم نكن نعرفه من قبل ، كما قدم سائق الباشا ابنته "زينة" بسهولة إلى الباشا وكأنه لا يعرف ماذا سيحل بها .. وكان أحرى بالقاص أن يصطنع شيئا يقنعنا باضطراره إلي ذلك .. كما لجأ الروائي إلى المباشرة فى ذكر صفات الشخصيات وكان يمكنه أن يلجأ للمواربة فى الدفع بالصفات . وكان فى إمكان الكاتب أن يحد من المبالغة (غير الواقعية) فى تصوير فظاظة أبناء الوادى ، فها هى أم ترى ابنتها تمارس الجنس فتقول لها " قومى يا بنت الكلب لما أخد دورى أنا بأه " وألا يعتمد على المروى .. وأغلبه تشنيع وبهتان .. وكان الكاتب السيناوى " حسن غريب " موفقا عندما لم يعتمد على الشمار ووصف بنات سيناء بالقشف ورائحة العرق المنفرة طبعا بسبب حياتهن البائسة .

واختتمت الرواية بمقطع " دوام الحال من المحال " ، على طريقة القص الشعبي، يحدث فيه سيادة التآلف والتعاون بين الناس والترحاب من نساء سيناء ورجالها للزواج بأبناء وبنات الوادى. لم يكن هناك داع لهذا المقطع .. وقد أنبأت الرواية بذلك فعلاً .. بل إن ما صارت إليه حوادثها أخبر أن سيناء وأبناءها لم يعودوا حنظل الشمال .. بل هما معزوزة الوادي والشمال معا .

أحد صناع (٢١ فبراير) يدلى بشهادته ..

تكتسب مذكرات الدكتور شريف حتاتة " النوافذ المفتوحة " ، أهميتها ، من احتوائها على شهادات هامة ، أهمها فيما أرى شهادته عن " ٢١ فبراير " بصفته أحد صناعه ، وأحد المشاركين فيه .. فقد عاصر وساهم ، فى تكوين اللجنة الوطنية للطلبة والعمال ، التى صنعت هذا اليوم المجيد فى تاريخ مصر .. وكان ضمن الوفد الذى ذهب لمقابلة إسماعيل صدقى رئيس وزراء مصر فى هذا الوقت ، طالبين وقف المفاوضات مع المحتل الإنجليزي .

وحين رفض صدقى ، اشتعلت المظاهرات ، وهو يروى هذه الأحداث ، دون عنترية ، وبتواضع شديد ، فحين اقترح الاتصال بعمال شبرا لتوحيد الجهد ، أحس بالخجل والمجتمعون ينظرون إليه ، وشعر أنه كمن ارتكب خطأ ، ولكن سرعان ما وافقوا على اقتراحه .

ولقد شارك فى المظاهرات ، بينما يتلمس طريقه لإزالة غربته عن المجتمع المصرى ، التى سببتها نشأته وتربيته . شارك بروح الشاب الغض .. بعفوية وتلقائية. " هل يمكن أن يتم عمل عظيم دون هذه الروح الفطرية الأصيلة التى تنسي حسابات الكبار وتدابيرهم ، وتشارك فى صنع الحياة بحماس الأطفال الذين يندمجون فيما يفعلونه فينسون كل ما عداه ؟ ص٣٠٩ . وحين شارك شريف الناس ، فيما يسعون إليه ، زالت غربته عنهم : " وجدت نفسي بين الجموع محمولاً مع الأمواج.. جزء من الكتلة البشرية الممتدة كالبحر .. فرد واحد أصبحت إرادته جزءا من إرادة الكل .. ضاع صوته فى الهتاف الواحد واللحن الواحد .. واندمج جسده فى الجسد الواحد .. أحسست بوحدة السنين تذوب .. بالنشوة المختلطة بالخوف ..أمشي بسيقان الجموع .. أتقدم معهم دون أن أسعى إلى التقدم.. واقف دون أن أقرر الوقوف .. لا أرى أين أسير ، ولا يهمنى . أنسى المخاوف .. أنساق كالمسحور إلى مصير مجهول .. إلى مصير الأمة ، فلأول مرة منذ ولدت أصبحت جزءا منها .. مصرى فى مصر ." ص٣١٨ .

هذا الشاب ، بفطرته ونزعته إلى الحرية ، لم يساهم فى صنع يوم ٢١فبراير فى مصر ، فحسب ، ولكن فى العالم أجمع.. فقد ثارت الشعوب المستعمرة ، فى مختلف

القارات، تدفع عنها نير الاستعمار وها هو الزعيم الهندى نـــهرو ، يقـــول للزعيـــم المصرى مصطفى النحاس ، عندما التقاه فيما بعد ، ألهمنا كفاح الشعب المصـــرى ، وتصديه ، وهو الشعب الصغير الأعزل ..لأقوى إمبراطوريـــة ، لا تغـــرب عـــن أملاكها الشمس ، وألهب شعوبا كثيرة ، فهبت غير عابئة فى وجـــه الإمبراطوريـــة البريطانية .

وبفضل يوم ٢١ فبراير ، انسحب البريطانيون من المدن الكبرى فـــى مصـــر ، وتركزوا فى مدن القناة .. وخطت مصر خطوة كبير نحو الاستقلال .

والشهادة الثانية ، التى يقدمها شريف ، فى مذكراته ، عن العمل فى المنظمـــات اليسارية فى مصر ، وكيفية التحاقه بها ، لم يكن يبحث عن دور ، بقدر مـــا كـــان يبحث عن تحقيق لذاته ، وعن وسيلة ، ليلتحم بأفراد شعبه . وحين تخرج طبيبـــا ، اتضحت أمامه الرؤية أكثر : " فمن الأيام أصبحت أدرك أن العلم وحده ، والمهنـــة وحدها ، ليست هى طريق الخلاص من العذاب الذى يصيب الرجال والنساء الراقدين على الأسرة .. فأغلبهم من فقراء المدينة والريف .. وهكذا دخلـــت فـــى مجـــالات للتفكير فتحت أمامى الميادين العريضة .. " ص٣٤١

ومن المدخل الإنسانى ، ومن محاولة الانتماء ، كانت رحلته المضنية ، من أجـــل تحقيق الاشتراكية فى مصر ، عانى ما عانى ، ولكن .. لم يكفر بـــها ، ولـــم يكفـــر بكفاحه ، بل يعتز به ، ويحاول فى هذه السن المتأخرة ، فوق الســـبعين ، أن يفيـــد الأجيال الجديدة ، بخبرته المعتقة ، محاولا ، أن يضع يده ، أو أيدينا ، على أســـباب التعثر : " فالشعارات والأسماء التى تأتى من أعلى هو أسلوب ساد فى حركة اليســـار منذ البداية وكان تعبيرا عن بذور الانعزال فى الحركة الوليدة التى لم تتوســـع فـــى علاقاتها الجماهيرية بعد .. " ص٣٠٥

وفى موضع أخر ، يتحدث عن اليساريين المشاركين فى اللجنة الوطنية للطلبـــة والعمال ،وكيف لم يكن عندهم تصور ، عما يفعلونه بعد اندلاع المظاهرات الوطنية، ضد المحتل ، لقد أطلقوا المارد من عقاله ، وهب الشعب وأظهر غضبتـــه ، ولكـــن أحدا لم يسأل نفسه : وماذا بعد ؟!

والشهادة الثالثة ، عن المدارس الأجنبية فى مصر ، طلب ناظر مدرسة الإرسالية البريطانية ، فى غمرة ، التى التحق بها ، شريف ، أن يذهب إليه فى شـــقة بميـــدان الإسماعيلية (التحرير)، إبان الحرب العالمية الثانية ، وموهما اياه ،أن سيقوم بعمـــل عظيم ، وكلفوه بعمل بعض الرسوم .. " وبعد قليل أدركت ان هذه الرسومات عبـــارة عن خرائط دقيقة وتفصيليـــة لمختلـــف أحيـــاء القـــاهرة ، بكـــل مـــا فيـــها مـــن منشئات ومؤسسات ومبان ، وشوارع وميـــادين وحـــواري وكبـــارى ، وخطـــوط مواصلات " ١٣٩ .

وهكذا وضحت شخصية الناظر الإنجليزي ، دون مواربة " اكتشفت فيما بعد أنـــه كان شخصية ذات وزن فى الجهاز الإنجليزي ، لإدارة المستعمرات ، فأثناء الحـــرب

العالمية الثانية كلف بتقديم خطة متكاملة للدفاع المدنى عن القاهرة فى علاقتها بحرب الشوارع .. وأنه كان يشغل رتبة عالية فى المخابرات " ص١٣٦.

ولم تكتف المدرسة الإنجليزية بذلك ، ففضلا عن بث القيم والمثل الإنجليزية ، حاولت مع التلاميذ النابهين ، وأبناء الأسر العريقة ، لكى يعتقوا المسيحية ، وكاد الراوى أن يعتنق المسيحية ، وأن يصبح قسا ، وهم لا يفعلون ذلك من أجل الدين ، ولكن لأهدافهم السياسية :" فنشر دين المستعمر وسيلة فعالة للنفاذ إلى بعض القطاعات الحساسة : فهو يعمى أبصار الناس عن الأهداف الحقيقية لأصحابه لأنه يعتمد على الإيمان .. وعلى الاقتناع بالمثل العليا للأعداء .. يفرض الطاعة والولاء باسم الرب .. ويقطع فى جسم الوطن ، وفى فكرة الوطنية ليقتص منها أجزاء " ص ١٢٩.

ويقول فى نفس الصفحة " فالمطلوب هو الخضوع لقوة أكبر ، والذوبان فيها ، ولذلك فإن كل الدعوات الدينية ذات الأهداف السياسية تحارب القومية ، والتفرد ، والشخصية المتميزة للإنسان .. وتسعى إلى إخضاع الناس لنظام إلهى متجانس .. إنها دعوة شمولية تبنى على خلق نمط واحد للإنسان يخضع للقهر باسم قوة عليا فى السماء "

وكأنى به يتحدث ، عما فعله ويفعله " الأخوان المسلمون " الآن ، وعمن تتسمى بـ " الجماعات الإسلامية " ، فى التى تحاول خلق مجتمع ، خاضع ، مغيب العقل ، غير مجتهد الفكر ، غير موجود فى الحضارة المعاصرة ، ومشدود إلى الخلف بل لأقصى ما فى الخلف من تخلف .

ويتميز كاتب هذه المذكرات ، بمقدرته ، على الصراحة ، وتحليل النفس البشرية، ولم يجد حرجا ، فى النفاذ إلى مناطق شائكة ، من جنس .. وحب وإيمان ، رغم أنه متزوج وله ولد ، ورغم المناخ الفكرى السائد ، الملئ بالمحرمات ، ومحاولات التكفير .

وكذا لم يجد حرجا فى التصريح ، بإحدى نقاط ضعفه " ربما كنت أريد من خلال العمل الحكومى ، أن أقترب سياسيا من الحكم " ص٢٨٥ . ولكن .. هيهات .. لا يقترب من سدنة السلطة ، أو هم لا يسمحون ، لأحد بالاقتراب منهم ، إلا إذا تخلى عن مبادئه ، وباع تاريخه للشيطان .

ويقول فى موضع آخر :" موقفى من السلطة ظل فيه بعض الازدواج .. صراع بين الرغبة فيها .. والنفور من قدرتها على تشويه الفكر ، وقتل الصدق فيمن يسعون وراءها ، ويرتبطون بها " ص٣١٦.

ولقد وضع شريف حتاتة لنفسه دستورا ، اتبعه فى كتابة هذه المذكرات ، يقول فى صفحة ٢٩٢: " لا أريد أن أسجل الأحداث ، والوثائق ، والتفاصيل إلا فى الحدود التى تفى بالغرض الذى أسعى إليه .. وهو أن أكتب التجربة الإنسانية والفكرية ، والنضالية التى عشتها أنا خلال هذه السنين .. أن أعبر عن منظورى الذاتى ، لما حدث فيها.. "

ومع ذلك لم يتحدث عن تجربته حين كان مطاردا ، وهرب إلى فرنسا ، وكذا عن تجربته في السجن التي استمرت عشر سنوات ، أتراه اكتفى بما ذكره في روايتيه " جناحان للريح " و " العين ذات الجفن المعدني " . ربما نستطيع أن نعتبرهما امتدادا لسيرته الذاتية ، يشهد بذلك وصفه للتعذيب النفسي في إحدى الروايتين ، لحمله على الانهيار ، وما جاء في النوافذ المفتوحة " أنه أصيب بمرض نفسي فعلا .. كان يغلق زنزانته ويسحب الغطاء على وجهه ويبكي بكاءً مرا .. لكنه خشي أن يصرح بذلك لأحد .. حتى لا يتهمه بالضعف .. وعالجه أحد أصدقائه من الأطباء .

ويعزز قولنا وصفه الدقيق في إحدى الروايتين لمظاهرات ٢١فبراير ، وصفا لا يستطيعه إلا مشارك ، كما صرح بذلك في مذكراته .

ولا يوجد اختلاف بين الروايتين والمذكرات ، سوي أنه كروائي ، نسب ما حدث من تعذيب لبطله في السجن إلي فترة حكم الملك فاروق قبل عام ١٩٥٢ ، ونحن نعلم من المذكرات أنه سجن لمدة ستة أشهر عام ٤٨ ، ولم يشر إلي أي تعذيب حدث له أثناءها .. إذا فهو يصف ما حدث له إبان حكم عبد الناصر ، وإن نسبه إلي عام ٤٨، يعزز هذا ما صرح به في المذكرات من تجاوزات أجهزة الحكم الناصري . فجهاز المباحث العامة ، يخرج المرضي من المستشفيات ، ويودعهم السجن ، وبالطبع يؤدي هذا إلي أمراض مزمنة ، وإلي الموت : " هذا في الوقت الذي خضع فيه جميع الأساتذة الأخرون (في مستشفي قصر العيني) لضغوط المباحث العامة وأخرجوا الحالات التي طلب منهم إخراجها رغم أن نسبة كبيرة منهم كانت تعاني بالفعل من أمراض خطيرة " ص ٣٧١ . كما تعرض المؤلف لنفس الموقف ، يقول في نفس الصفحة : : " خاطبته المباحث العامة عدة مرات شفهيا (يقصد المعالج الدكتور مصطفي الشربيني) وعن طريق المراسلات الرسمية حتى يخرجني من القسم ويعيدني إلي السجن " . وفي موضع أخر من المذكرات، يصف كيف قتل صديقه الدكتور فريد حداد في ليمان أبي زعبل .

ولقد خلت المذكرات من الحديث عن زملائه وحياته في السجن ، رغم طول المدة ، كيف أثر فيهم وكيف تأثر بهم . لقد عاصرته زمنا في سجن مصر ، وفي سجن الواحات الخارجة . ورأيت كيف كان عونا لزملائه ، ماديا وغذائيا ، وكيف كان تواضعه مع مركزه الأدبي والعائلي ، حافزا للكثيرين علي التماسك ، وكيف كان هذا المركز مؤثرا في رجال الإدارة . فلقد خفف وجود شريف كثيرا من أثر أي تكدير علي السجناء ، وكان يجعل السجانة يفتحون علينا الأبواب ، التي يود رؤساؤهم إغلاقها علينا ليلا ونهارا . كما أسهم بجهد وافر في توفير الجرائد والكتب والمجلات ، وكلها من الممنوعات للسجناء السياسيين . وكان وجود شريف كقدوة مؤثرا حقا . لم يكن يأنف من أي عمل . رأيته في الواحات الخارجة ، ينزل إلي قاع حفرة صنعناها ، وفيها ماء المجاري وفضلات السجن ، لنصنع سمادا عضويا لتسميد أرض نستصلحها في مزرعة السجن ، ويحفر وينقل دون كلل أو أنفه ، السماد إلي الأرض المستصلحة .

وكان وجود شريف بابتسامته الحانية ، وهدوئه ، رغم ما نمر به من صعاب يخفف نفسياً عن المجهدين ، وكان يساعد فى تطبيب المرضى وما أكثرهم فى السجن.

ولقد أشار الكاتب ، إشارة عابرة إلي قصة زواجه من نوال ، يقصد بالطبع الدكتورة نوال السعداوي ، التى يذكرها تارة باسم نجلاء ، وأخري باسم نجوي ، دون أن نفهم سببا لذلك .. هل هي أسماء تدليل .. أم المقصود شخص آخر . وذكر أنه سوف يروي القصة في حينه ،وانتظرنا حتى انتهت المذكرات، ولم نقرأ شيئا عن القصة ، فهل يقصد بـ " حينه " جزءً آخر من المذكرات ، أم أنه نسي أن يفعل ذلك فى هذا الكتاب ؟!

وأشار الكاتب بشكل عابر إلي الحركة المطالبة بحقوق المرأة ، وهو بحكم اقترابه من زوجته ، التى تلعب دوراً هاما فى هذه الحركة ، كان يستطيع أن يحدثنا بالكثير ..

ففي إحدى الندوات بالمنصورة ، التى تحدثت فيها زوجته ، علمت من شريف أن هذه المشكلة قائمة ، حتي فى الاتحاد السوفيتي (وقتها) ..وكنت أظن ، ومعي كثيرون ، أن مجرد تطبيق الاشتراكية وإلغاء الاستغلال ، كفيلان بأن تحصل المرأة علي حقوقها ..وتساوي الرجل وأخبرني شريف أن ميراثا من تقاليد عريقة متخلفة ، يحكم الرجل الروسي ، ولم تفلح فى إزالته الاشتراكية ..

ولقد وردت إشارة عابرة فى المذكرات ، أنه جالس والده ، يافعا ، فى ناديه ، بشارع سليمان بالقاهرة فى حضور كبار رجال دولة هذا الزمن .. ومع ذلك لم نسمع كلمة واحدة عن حياة هؤلاء السادة ، تشي بخفايا عصرهم ..

كما رأي طفلا الزعيم سعد زغلول ، وهو يزور جدته عائشه فى بيتهم (سعد زغلول عم جدته) ومع ذلك لم يقل لنا شيئا مما تردد عن الزعيم فى أسرته .. ربما كان طفلا ولا يدرك .. ومع ذلك روي عن فترة طفولته فى لندن (وكان أصغر) وفى دوار قرية القضابة بالغربية ودوار القاهرة ، الكثير وبالتفصيل ، الذي لا تستطيع التقاطه عينا طفل ، وبرر ذلك فى بعض الأحيان ، أنه سمع من الكبار ..

ولقد كرر الكاتب كثيرا ، الحديث عن انعزاله عن البيئة المصرية ،والمجتمع ، كما أسهب فى وصف بيوت وأماكن زارها صغيرا ، بما لا داعي له ، ونسي أن يخبرنا كيف أصبح كاتبا .. ؟!

لقد بدأ الكتابة، بعد خروجه من السجن ، وكان قد تجاوز الأربعين .. فلماذا لم تظهر الموهبة إلا فى هذه السن المتأخرة نسبيا ؟؟ أم أن الموهبة كانت كامنة ، وحال دون ظهورها انشغاله فى العمل السياسي ؟! ، أم أن عدم وصول العمل السياسي إلي غايته ، جعله يحول نشاطه إلي مجال آخر .. فكانت الكتابة الأدبية .. اكتفي الكاتب بالقول ص ٣٠٩ " لقد بدأت حياتي العامة كسياسي ..ثم فى العقود الأخيرة أصبحت كاتبا " .. كيف ؟! وأين تجربته ككاتب .. وهل تكفى إشارة عابرة لبطلة إحدى رواياته .. ؟!

ان حياة شريف حتاته ، غنية بالتجارب ، ولا شك أنه حرمنا من الحديث ، عن الكثير منها. أغفل مثلا قصة حبه لديدار روسانو وكيف كان يراسلها من سجنه في الواحات الخارجة وهي في سجن لابيتيت – روكيت بفرنسا ، إلا إذا كان في جعبته كتاب جديد ، وليته يفعل .. شريطة أن ينصب المفعول به هذه المرة ، بدلا من رفعه. ولست أدري .. هل فعل ذلك رفقا بالمفعول بهم دوما .. فأراد إنصافهم برفعهم ، أو لأنه يتحدث بهمس ، وتواضع ، فآثر أن يكون كلامه قريبا من الحديث الدارج ، الذي لا يهتم بنصب المفعول به ، فيكون بذلك أكثر حميمية مع القارئ .

أيا ما كان الأمر ، فلم يمنعنا ذلك ، من تملي خبرته المتدفقة عبر السطور : " إن العقل والجسم يستطيعان التغلب علي الضعف أو المرض بعملية إعادة تدريب لقدراتهما .. فهما يتمتعان بحيوية يصعب إدراك أبعادها إلا إذا وثقنا بها " ص ٢٠٨.

ويقول في نفس الصفحة أيضا : " فالطبيعة هي الحياة .. هي ممارسة القدرات التي أعطيت للإنسان " أما عن كلماته التي تقطر شعرية ، فالنص ذاخر بها ، استمع إليه يقول في ص ٢١٦ : " تناولت طعامي في البيوت ، والمطاعم والفنادق الهندية ، والصينية والإيطالية ، والفرنسية والتركية ، واللبنانية ، والمكسيكية .. ولكن رائحة الطعام في أفران جدتي (عيشة) وطعمه ليس لهما مثيل .. شئ يصعب تحديده .. يتعلق بالشباب ، والطفولة .. بالصحة والعافية .. بالحنان يتسرب من الأصابع التي صنعته .."

وصرح شريف ، أنه رغم تقدمه في العمر ، فما زال يعيش في وهم أن يري الاشتراكية تتحقق ..

نرجوك يا عزيزنا شريف .. استمر في هذا الوهم اللذيذ .. ليس وهما .. بقدر ما هو حلم .. وهو ليس حلمك وحدك ..إنه حلم ملايين الناس في بلادنا وفي العالم ، وحلم البشرية ، منذ فطرتها الأولي .. أن تتحقق العدالة الاجتماعية علي الأرض . لقد فشلت بعض التجارب .. وما زالت قائمة تجارب أخري ..وقد تفشل في المستقبل تجارب .. ولكن سوف يظل الانسان – أبدا – في شوق لتحقيق العدالة ..متنسما الأمل .. وما دامت الشمس تطلع كل يوم .. سوف يظل الأمر معششا في النفوس .. ولن يهدأ بال البشرية .. حتى تري الحلم حقيقة ..

هذا وقد صدرت المذكرات ، عن مكتبة مدبولي بالقاهرة عام ١٩٩٣ ، وتقع في ٣٦٨ صفحة من القطع الكبير .

(رجف الذاكرة)
والتكوين القصصى

تتكون القصة عند رضا إمام ، في الغالب ، من لوحة عن البيئة الشعبية ، ولوحة من الألم ، وخلفية من الطيور خاصة العصافير .

يقول في قصة " وشم الحيطان القديمة " ص ١٠٢ (والنساء في حلقات وطوابير، رائحات ..غاديات .. جالسات) وقد تخففن من معظم ملابسهن كعادتهن أيام الطحين ، وذرات الدقيق والردة والسرسة تغزوا " تغزو" أفخاذهن البيض ، يصرخن .. يضحكن .. يغنجن ، تتشخلل الحلقات البريمة في أذانهن ، تتمخطر على صدورهن عقود الخرز الملونة الكبيرة ، والخلاخيل الفضية تصلصل بين السيقان الملفوفة والأقدام المدكوكة ، والأولاد يلعبون ، يلغمطون وجوههم بالمسحوق الأبيض للدقيق..) .

قلم مغموس في البنة الشعبية ، ولا يتحرج من استخدام أفعالها (يلغمطون) .

ويقول في لوحة أخري ، من قصة " كرات زجاجية " ص ١١٧ (وأشياء تحملها الريح الآتية من بعيد ، محملة بروائح الحيطان .. العرق .. الغناوي .. السهر .. الجوافة .. الليمون .. الكافور .. العجينة الطعم .. النهر .. الدبوس السنارة .. زفارة البساريا ..البكارير الصغيرة .. رائحة الندي .. السباخ ..خوار .. ترجيعات .. ثغاء.. هديل ..زقزقة ..) .

ويقول في لوحة من الألم ، في قصة " موسم " ص ٧٤ (تتدحرج عيناها إلى صرة الصالة . هنا كانت الطبلية الخشبية .. وهنا كان يجلس المرحوم والأولاد من حولها يلتفون .. في أيام تولت .. فيلفها شرود عميق ، تتنهد تنهيدة مكتومة كقضقضه الخشب عندما يتكسر ، ويأتيها الصوت خافتا كوشوشة ، ثم بعد ذلك يبين، كانت النخلة التي سقطت علي الأرض ، لا تكف عن الطنين والدوران فراحت مع النحلة تلف وتدور حول عجيزتها العجفاء ..) .

وأما عن خلفية التكوين ، يقول في قصة " وشم الحيطان القديمة " ص ١٠٨ (ورحت بعيني .. بأذني .. ، أبحث عن أثر لأية شقشقة صباحية ، دون جدوي ، ولا لمحت عصفورا واحدا يتقافز بين المسافات الرمادية .. يعطي – ولو – ظلا من ونس) .

ويقول فى قصة " فوضي الأعشاش الصغيرة " ص ٨٠ (ها هي العصافير تفر من قلبه مرة أخري ، وتحوم الأغربة) " الغربان " .

وفى ص ٨١ (والعصافير رجعت تنقر باب قلبه ، فأطلت الفوضي بوجه عفريت ، فعاودت الرحيل ، إلا من عصفور صغير) .

هذا التكوين القصصي ، الأشبه بتكوين اللوحة ، عند الفنان التشكيلي ، تتفاوت درجات كثافة كل عنصر من عناصره ، حسب الدلالة التى تطمح لها القصة ، وحسب الأماكن والأشخاص الذين تحتفى بهم .

فى قصة "حكايات غرامي " يتساءل البطل .. لماذا يعاود الذهاب إلي شبرا ، مع أن بيئتها تغيرت . إنه – ببساطة – ذاهب ليستعيد بيئتها الشعبية ، التى ما زالت فى مخليته .

تلك البيئة ، التى أفرزت عم عوض ، ماسح الأحذية ، المحب للطرب ، والذي يعاني من قرار ، بإزالة دكانه . لكنه ، لا يترك المكان ، فقط ينتقل من الدكان ، الذي لابد من إزالته ، إلي سور الحديقة المواجهة له يمارس هوايته فى الطرب ، دون أن يتخلى عن مهنته. وإذا كان لابد من التقدم ، إزالة القديم ، وإحلال الجديد ، فلماذا لا يحتفظون بموقع لعم عوض ، وهل لابد أن يكون مع الجديد ، ذلك الحشد الملتف ، عبر سور الحديقة ، حول القرود ، والبهلوانات يقفزون فى الهواء .. ؟!

في قصة " رجف الذاكرة " يتعمد البطل ، الذي يزمع الرحيل إلي بيئة صحراوية، بالبيئة الشعبية ، حيث المآذن ومقاميات الأولياء ، والماعز الأسود ، وقطعان الحملان القرنفلية ، والريح تحمل أنفاس السلامية تتناوبها رءوس النخيل والشجر .. والعصافير .

وانزلاق الرضيع فى النهر ، كأنه سيدنا موسي ، أفصح عما تحمله نفس البطل، ليس من مفردات البيئة الشعبية ، فحسب ، ولكن التراثية أيضا . كأن البطل يجاهر ، أنا راحل حقا ، بحكم الضرورة ، من أجل سعة فى العيش ،ولكن بجسدي فقط . أما الوطن ، بكل مفرداته ، فهو فى الأعماق ، أو بمعني أخر ، لا يمكن لهذا البطل ، أن يستمر فى الحياة ، سواء رحل ، أم بقى ، إلا إذا كان الوطن داخله .

وعنوان هذه القصة ، الذي هو عنوان المجموعة كلها، يعني الاهتزاز . واهتزاز إناء بما فيه ، قد يعني تقليب ما به ، ورؤية ما فى القاع ، أو تعريضه للضوء . وقد يعني جعل مابه غير هائش . فيثبت ، أو يسع مادة أكثر . وحين يتعلق الأمر بالذاكرة، فقد يعني عرض ، ما نظنه قد تلاشي فى الأعماق . وقد يعني التثبيت ، أو التذكير ، بجذورنا الشعبية ، التى يحجبها عن الرؤية ، البهلوانات، الذين يقفزون فى الهواء ، أمام عم عوض .

إن طمس البيئة الشعبية ، لا يقوم به المهرجون والبهلوانات فقط ، ولكن المتفرنجون أيضا . فى قصة " سعف الشواهد " ، كان يرتدي البرنيطة ، وتتدلي من إحدي كتفيه ، حزمة من العصافير المذبوحة ، وكلب ولف ، يشب ليلعقها . فتل المتفرنج .. الأمل وأشواق الإنسان عند رضا إمام ، كما سيتضح لنا فى قصة " شدو

الصلصال " .. وإذا كانت القصة قد شخصت الداء ، فهي تقدم لنا الدواء . " هذا الشراب يا بني إن اجتمع فيه الندي وقت شقشقة العصافير الصباحية ، فهو الداء لذات الداء .. الذي يحمل رائحة أرضنا الطيبة ، مع الشقشقة ، وقت ارتعاشات شمس الأمل في البكور ، هو العلاج من داء الدخيل ، الذي يود طمس الهوية ، ويحاول حجب الأمل " .

والوطن فى هذه القصص ، ليس البيئة الشعبية فقط ، التى تعشش ذكرياتها ، وصورها ، فى نفوس الأبطال ، سواء بقوا فى الوطن ، أو اضطرتهم ظروف الحياة للسفر ، ولكن الوطن ، أيضا ، نتاج الحضارة ، صناعة أبنائه فى قصة " بحر " . الوطن راسخ ، سواء فى النفس ، أو الواقع ، بشدو أم كلثوم ، وروايات نجيب محفوظ ، وسيرة كفاح سعد زغلول ، ووجود سكر بنت البواب ، ومأذنة جامع المرسى أبي العباس .

وقصة رضا إمام ، لا تحرص علي هوية أبطالها الشعبية فحسب ، بل تلونهم بلون البيئة . فى قصة " سحتوت " ثري يريد طلاء قصره . أعجبه لون ، تخايل له فى كأس الخمر ، عندما وضعت فيه زينونة . نفس اللون ، كما أفصحت عنه نفس سحتوت(هي نفسها بقعة الزيت الملونة .. يراها تعلو برك الماء علي أسفلت الشتاء). والثري ، هنا ، يود تزييف واقعه ، أو التظاهر بواقع آخر ، غير حقيقته ، باستعارته لونا شعبيا ، يدهن به قصره . يود أن يكتسب بريقا شعبيا زائفا ، .. هيهات .. ، سحتوت يجيد خلط الألوان ، وتخليق اللون الذي يريده ، سحتوت فى حاجة إلي أي قرش يقيم به أوده ، ويسكت به لسان امرأته ، ستحتوت لا يطلب الستر وراحة البال. دون اعتبار لما يعتقده ، وإذا كانت المعادلة .. فلوسا وخوفا .. أو سترا وراحة بال .. فهو يؤثر الأخيرة ، من وجهة نظره هو ، وليس من وجهة نظر الثري ، إنه لا يعطية لونه ، أو لا يساعده علي سرقة اللون الشعبي .. إن سحتوت يدهن نفسه باللون المختار .. بدلا من دهان القصر .. وينأي بنفسه عن لعبة الزيف .

إن سحتوت يتحقق ، رغم القهر والحاجة . وهاجس التحقق ، يرف فى كثير من قصص هذه المجموعة . رغم ما تعانيه الشخصيات من مرارة وألم . وهذا التحقق يدفع إلي الأمل والتفاؤل ، رغم ما قد يعتري المتلقي من إحباط ، ينشع به جو القص القاهر والمؤلم . لكن الأمل ، هنا ، منتزع بالفعل الشعبي ، ومنبثق من رحم المرارة.

فى قصة " فوضي الأعشاش الصغيرة " يدفع الأب ابنه ، لسرقة حبات من البرتقال ، ليسد جوعتهم . ويستجيب الولد علي مضض . ولو كانت قصة سد الجوع، أو السرقة التى حتمتها الضرورة البيولوجية ، لاعتبرتها قصة رخيصة ، وما استحقت أن نتعرض لها . ولكنها ليست كذلك . رغم ظرف الضرورة الذي أجبر الأب علي دفع ابنه للسرقة ، إلا أن الولد يغريه لون حبات الفراولة الحمراء . بعد أن سرق حبات البرتقال (الضرورة) وأصبح فى الأمان ، يعود ثانية ، مستجيبا لما استهواه كصبي ، لون الفراولة الجميل .. وريقه الذي جري ، وهو يمني النفس بمذاقها الشهي . إنه – رغم المخاطرة فى العودة – يسرق لحساب ذوقه هذه المرة . يود أن يتحقق كإنسان ، من حقه أن يتذوق ما يرغبه ، ومن حقه أن ينعم باللون الذي

استهواه . ولا تمضي القصة بعيدا ، حتى يهمس الولد لنفسه ، هل يأتي يوم (أسـوق لحسابي) . إنه يود والإستقلال ، رغم الظروف القاهرة . يريد أن يعمل لحسـابه ، وليس لحساب غيره . إنه يود التحقق رغم إطار الشر الـذي يتحـرك فـي نطاقـه (السرقة) ولكن هذا شر مفروض عليه ، ولا حيلة له فيه ، وهو يتحقق برغمـه ، وإن كان بشروطه ، والشر رغم هيمنته علي واقعه ، لم يحل بينه وبين ما يريد .

وفى قصة "موسم " امرأة وحيدة ، لا عائل لها ، ولا تملك شيئا . تذهـب عنـد مقلب الزبالة ، وتأخذ كيسا ، مملوء بأرجل ورءوس الدجـاج وأجنحتـها ، وتفـرغ محتوياته ، وسط الحارة ، ليهرع إليه الجميع .

بعد أن أعطت أهل الحارة ، انزوت فى حجرتها ، تجتر أحزانها الخاصة ، أيـام المرحوم والأولاد .لا الحزن ، ولا الفقر ، ولا الألم ، حالت بينها ، وبين إنسـانيتها ، والمتمثلة عندها فى العطاء . وفى قصة " زعانف " ، الأطفال لا يتحققون إلا بـاللعب ، وهكذا ، لم تفلح الشتائم ، والماء المراق ، فى منع الأطفال من اللعب فى الحـارة ، بل نبتت لهم زعانف ..حتى يستمروا فى اللعب .

وفى قصة " الرقص حول دائرة القطرات الحمراء " طائران داخل القفص ، ذكر وأنثى . اكتشف الذكر موت الأنثى ، حاول إنهاضها دون جدوى . ضرب رأسه فـي سقف القفص ، انتثر الدم من رأسه ، وهو مازال يغني حتى سـقط بجوارهـا . إن القصة لم تستخدم القفص ، الاستخدام المستهلك كحابس للحرية ، ولكنها اسـتخدمته كإطار للتقاليد البالية، التى تمنع التحقق فى الحياة ، فليست صدفة ، أن الأنثى هـي التى ماتت-أولا . فالنساء في المجتمع ، هن أول من يعاني من التقاليد المتخلفة ، ولما كان التحقق لا يتجزأ ، ولا حياة لذكر ، إلا بأنثى متحققة إنسانيا ، فإن الذكر يمـوت أيضا . إنها قد تبدو قصة متشائمة ، للوهلة الأولي ، ولكنها قصة تنـذر ، وتـدق ناقوس الانتباه .. لا تظن أن الذكر ، يمكن أن يتواجد إنسـانيا ، إذا كـانت الأنثـى مهدرة الحقوق . ومعزوفة التواجد الإنساني ، لا يمكن ، أن تتم ، دون المضي قدمـا إلي الأمام.

فى قصة " المزمار " ص ٦٨ (وسبابته المنبثقة من وسط الماء ظلت مشـوعة ، تشير للأمام) .

وفى ص ٦٩ (اقترب من سياج النافورة المحيطة بالنصب التذكاري فى وسـط الميدان ، جلس ، فض اللفافة ، أخرج المزمار نفخ ، فانداح اللحن القديم وكأن نفـس اليد تطالعه من ماء النافورة) ، يد صديقه الذي مات فى الحرب .

إن النفخ هنا ليس للإيقاظ .. ولكن للتذكير باللحن الذي مر عليه عشرون عامـا ، لحن حرب أكتوبر .. لحن صديقة الذي مات فى الحرب ، ومنعه من التقدم لإنقـاذه حيث لا فائدة ، ووهب له الحياة .. ولكنها ليست أي حياة .. إنها الحياة المتطلعة إلي الأمام .. نحو التقدم .. وإلا ما فائدة التضحية إذن .. ؟!

وأود أن أشير ، أن هذه القصص تشى بمدلولاتها ، من نسيجها ذاته ، وطريقـة تشكيلها ، وأن ما ذكرناه عن اللون الشعبي مثلا .. باحت به قصـة " سـحتوت " .

وأننا لا نفعل مثل بعض الكتاب ، الذين يؤولون القصة بما ليس بها ، ومرجعيتهم من خارج القصة . فهذه قصة عن عدم التواصل . كيف والقصة لا تشي بذلك، بل قد تكون غامضة ، ويتعذر فهمها . مرجعية أن المجتمع الذي أفرز كاتبها يموج بعدم التواصل .. وتفسخت فيه الأواصر ، وأصبح الإنسان مغتربا عن نفسه وبلده . أي أننا فى حاجة إلي مذكرة تفسيرية لكي نفهم قصة . وأري أن القصة عالم مستقل بذاته، يجب أن تبوح بدلالتها ، دون مرجعية خارجية ، ربما ساعدتنا هذه المرجعية علي الفهم أكثر ، ولكننا نستطيع الاستغناء عنها ، وإلا كيف يكون الحال ، إذا بعد المتلقي لهذه القصة زمانيا .. بعد خمسين سنه من كتابتها .. أو مكانيا ، كان فى أنجلترا مثلا .. كيف يفهم هذه القصة . أو كيف تؤثر فى وجدانه ، وهو لا يعلم شيئا عن المجتمع الذي كتبت عنه . هل نحيله إلي مذكرة تفسيرية ..

إننا نقرأ قصصا ومسرحيات من أيام اليونان .. ومن العصر الشكسبيري ونفهما دون أن نعرف أحوال مجتمعاتها .. بل إننا نعرف حال المجتمع من الأعمال ذاتها. نحن نقرأ لكي نعرف .. وليس نعرف لكي نقرأ ..

وأزعم أن قصص رضا إمام ، من النوع الأول ، تعمق الوعي بالذات وبالمجتمع وبالإنسان ، متوسلة بتقنيات أبدعها المؤلف ، فى قصة " شدو الصلصال " ، بطلنا الصبي ، يستعصي عليه فهم معاني الكلمات ، يشرع فى صناعة عصفور من الصلصال ، نظر فى مرآة وجدها ، وشكل الصلصال ، فخرج التشكيل عصفورا ، وبالطبع فهو عندما نظر إلي المرآة لم ير عصفورا ، ولكنه رأي وجهه .. ولكن التشكيل جاء عصفورا .. أي أن القصة تخبرنا أن العصفور هنا مرادف للإنسان .. وتقودنا هذه القصة إلي فهم ماذا تعنيه العصافير والطيور ، فى فضاءات القصص الأخرى. وانطلق الصبي (فى نفس القصة) مع العصفور ، وسط الحقول .. أي ن تنبثق آماله كإنسان إلي وسط أرضنا الخضراء .

لقد قدم الكاتب ، تشكيلا ، مبتكرا فى هذه المجموعة ، ولقد نجح فيما طمح إليه ، وحمل تشكيله دلالات إنسانية واجتماعية .

ولكن إذا كان للكاتب طموحه ، فللناقد طموحه أيضا ..

فى بعض القصص ، وددت لو اهتم الكاتب بالشخصية أكثر . عم عوض فى قصة " حكايات غرامي " ، انتقل من الدكان إلي الرصيف . ولم يقدم الكاتب لوحات الألم ، التى قدمها فى قصص أخري . أين معاناة الرجل وقلقه ، لأنهم سيطردونه من مكانه ، بعد قضائه فيه عمرا طويلا ، أين معاناته علي الرصيف ، وكان صاحب دكان . لا شك كانت هذه اللوحات ، ستنحت عم عوض فى وجداننا أكثر ، ولن يفارقه بسهولة .

فى قصة " كرات زجاجية " ، فرق الأب بين الصبي والصبية ، رغم إدراكه للحب الذي جمع بينهما . (وحين تؤوب الأصوات إلي صمتها المؤقت ، ويذهب من يحس علي البهائم والزريبة والنائمين علي الأبواب ، يستدير إليها فتستدير ،

ويضئ بدر وجهها ليل الحرام الصوفي ، ويهمس : متي يقرب البعيد ؟! فتحضن وجهه بيديها اليمامتين الصغيرتين) .

لكن البعيد لا يقرب ، بل القريب هو الذي يبعد . الأب يتناسي وعده ، حين جاء أول طالب للزواج من البنت . وهو لم يفعل ذلك ليفرق بين الحبيبين ، ولكن لأن الطالب أيسر ، وأقدر علي إعاشة البنت . ولم يشفع للولد الدبلوم الذي حصل عليه ، ولا نشاطه في محو الأمية . ثمة شروط أخري حددت سلوك الأب . أين لوحات الألم.. مرة أخري .. ؟!

لم نعرف شيئا عن داخلة نفس البنت الخضراء ، وهي تعاشر رجلا لم تختره ، فضلا عن أن تحبه ، لم نعرف شيئا عن داخلة نفس الأب ، عم الولد ، وهو يضحي بحب البنت لابن أخيه ، ولقد أدرك هذا الحب من كلام امرأته ، وهي تعلق علي العلاقة التي لحظتها بينهما ، كيف كان وقع هذا علي نفسه كإنسان ، يدرك حقيقة ما فعله ، لم نعرف شيئا عن داخلة نفس الزوجة ، وهي الأقدر علي الاحساس ، بشعور بنت ، تضاجع رجلا لم تعرفه من قبل .

لو فعل الكاتب ، وقدم لوحاته عن الألم ، لأثري القصة ، وأثري وجداننا .

ولغة الكاتب الفنية ، ممتلئة بالشعرية ، التعبيرعن جوهر الهموم والأمال ، والشاعرية ، يصور بطريقة مجازية ، وكثيرا ما يمزج بين الشعرية والشاعرية في لغة راقية . في قصة " كرات زجاجية " ص ١١٤ و ١١٥ (غابت عن عينيه وظل صوتها يرن في أذنيه ، لكم حاره هذا الصوت العجيب ، الطاغي في ضعفه ، المستكين في جبروته ، فكأنه أول سرسوب يشر بعد طول انحباس ، أو كأنه نهار ينبثق في وجه الليل الاهاب بخيط مرتعش ثم ما يلبث أن يفيض بالضياء ، الصوت المكتوم .. الصريح ، عصارة كل أوتار الطيور والظباء وتسبيح الشجر ، أين بالضبط يكون مكمنه ؟! أمن الصدر يأتي؟ من البطن .. من بين دلتا الفخذين .. أم من حبشة الأقدام ينبع ، وفي العروق يجري ، ومن رأس البنت يرتد ، ليطل من العينين ، ثم يظل صوتها طوال الوقت مخبوءا ما بين الأنف والحنجرة) .

هذا النثر الفني الجميل عن طريقه يحاول الكاتب النفاذ إلي جوهر الأشياء ، وهو موجود بكثرة في قصص هذه المجموعة ، ولكن تشوبه أحيانا كلمة مشتقة بطريقة متعسفة ، أو تركيبة لجملة ، مجافية لأسلوب العربية ، أو كلمة متمردة نحويا ..

وقد صدرت المجموعة عن سلسلة " أصوات أدبية " عام ١٩٩٧ وتقع في ١٦٠ صفحة من القطع المتوسط .

الحب والجنس والفقر

فى مجموعة ممدوح رزق .. (إنفلات مصاحب لأشياء بعيدة)

تحوي هذه المجموعة ثماني عشرة قصة قصيرة جدا ، لا تتجاوز الواحدة منها صفحة واحدة إلا فيما ندر ، وبعضها لا تتعدي نصف صفحة من القطع الكبير .. وتسع قصص منها ، وهي التى تشغل نصف الكتاب الثاني ، حسب ترتيب نشرها ، تنويعات علي الحب بأشكال مختلفة . فى " انفلات مصاحب " التى تحمل المجموعة اسمها ، يهرب الراوي من حب فتاته إلي الجنس ، دون أن ندري لذلك سببا ، ورغم إغراقه فى الجنس .. " لست بالضرورة مطالبا بإنتزاع ملامح البنت من داخلي " إلي أن يصل " لن يفيدك أن تكون البنت قد صارت بعيدة جدا .. إلي حد الموت " .. تلك البنت التى أمسكت يده ذات مرة ، لنظراتها مذاق الرحيل إلي عالم أخر . هل استعصى الحب من أجل هذه النظرة ذات المذاق .. والتى كانت سببا فى حبها فى الوقت نفسه .. أم أنه لم يستطع ، سواء بسبب ظروفه غير المواتية ، أو مقدرته علي الحب الحقيقي فى سن مبكرة ، الرحيل إلي عالم أخر ..

والبنت في " للميلاد .. رائحة الدهشة " لـ " عينيها طعم الحلم " .. وهو حب غير متحقق أيضا ، فالقصة تنتهي بـ " لكن البنت لا تأتي أبدا " .. هل لأنه لم يستطع أن يتجاوب مع حلمها الذي لا نعرفه .. أم لأنه لم يزل طالبا ، لم ينه دراسته، ومطلوب منه التفرغ لها أولا .. كما يلح والده فى أكثر من قصة .

أم تري السر كامن فى فصل الحب عن الجنس . فى " علامة استفهام " أعضاء البنت ، لم تكن تعني عنده شيئا ، وهو يمارس معها جنسا ناقصا فى التليفون ، فالأحلام الليلية لا تبغي الانفصال عن نهدي صاحبة البنت التى يحدثها تليفونيا ، يظن أنه يحب الصاحبة ، ولكنه فى الحقيقة به شبق لثدييها الكبيرين ، ينتصر الحب ، ويحب محدثته فى التليفون رغم نحولها .." حبيبتي .. لماذا أشعر الآن أن نهديك يكبران فجأة " ويستمر انتصار الحب فى " ولد وبنت " .. أو قل هي حتمية الحب ، مهما كانت صفعات الأب ، رمز القهر ، وتضييق الأم علي البنت ، رمز العرف القديم ، وإغلاق شباك البنت المطل علي شرفة الولد ، ولكن لا شيئ يقف أمام النضرة ، لكي تتألق ، ويحول دون الزهرة أن تتفتح .. يلتقي الولد البنت وقد كبرا، وانطلقا ، أصبح الماضي مجرد ذكري . لم يكن هناك داع للسطر الأخير : " واحتوي نزيف الدمع .. صمت البدايات " . لقد انطلقا .. وتم التواصل .. وفى " مخلوقات للنهار " الجسد فى حاجة للجنس ، لكنه فى حاجة أكثر للدفء الإنساني ، وعندئذ تذهب برودته ، وفي " شعيرات بيضاء " فتاة يفوتها قطار الزواج ، وتنتظر فى نافذتها دون جدوى ، وأميل إلي الاعتقاد أن الذي فاتها ، هو قطار الحب وليس الزواج .

أما القصص الأولي من المجموعة ، حوالي تسع ، فهي تحفل بالهم الاجتماعي ، فى " الميزان " ..الحدث عادي . شرطة المرافق ، تطارد الباعة الذي يشغلون أرصفة ونهر الطريق ، ولا تتجاوز مساحة القصة نصف صفحة لكن القصة حافلة بالدلالات . الميزان ، اسم القصة ، لا تخطئه العين رمزا فى المحاكم ، فوق منصة القضاة ، وعلي زجاج عرباتهم ، وهو قبل ذلك ، رمز فرعوني قديم ، عندما كانت توضع ريشة ماعت فى كفة ، وفى الأخري أعمال المتوفى . هذا الميزان تحاول الشرطة الاستيلاء عليه ، ولا تسلمه لأصحابه إلا بعد دفع غرامة . هذا الميزان يهربه الباعة ، ويساعدهم فى ذلك الأهالي ، حتى تذهب الشرطة ، رمز القهر ، فيعود الميزان إلي الظهور .. أي لا وجود للعدالة فى حضور القهر . كما أن الميزان المنصوب فى السوق هو رمز للحياة ، وما الحياة إلا بيع وشراء ، فى إحدي صورها .. حيث المساومة ، وتبادل النقود والحصول علي الطعام . ولقد أغفل الكاتب سبب مطاردة الشرطة للباعة ، ليس لأننا نعرفه ، ولكن لأنه لا يحفل به أصلا .. وكل ما يهمه .. هو العدالة .. واستمرار الحياة . وحتى لو أخذنا القصة بمفهوم سطورها ، دون أدني تأويل ، أي مطاردة الشرطة للباعة ، لإخلاء الطريق .. فسوف نجد أنفسنا فى حلقة مفرغة ، فمطاردة الشرطة لا تصل إلي شئ ، فما أن تنصرف الشرطة حتي يعود السوق كما كان .. فما جدوي المطاردة إذن .. والتى لا يتخلف عنها سوي بعض العنف أحيانا ، وبعض الغرم فى غالب الأحيان .. ولكن الحياة ، لا يستطيع أحد إيقافها تعود كما كانت .. ويؤكد ما ذهبنا إليه من دلالة القصة ، أن الناس تساعد الباعة ، علي إخفاء الموازين ، رغم أن المفروض أن مطاردة الشرطة للباعة، فى صالحهم ، حيث يكون الشارع صالحا لاستخدامهم ، وتكون بيوتهم امنة من الضوضاء .. لكن الناس تأخذ جانب المحافظة علي الميزان ، رمز العدالة ، وعلي عودة السوق ، الحياة ، رغم ما يسببه لهم ذلك من تعب .

وفى قصة " بعض الوقت لقضاء الحاجة " .. وهي فى الحقيقة بعض المال لقضاء الحاجة ، فالإنسان المعوز ، لا يستطيع أن يقضي حاجة جسده الطبيعية بشكل كريم . رجل يدخل دورة مياه فى مكان عام ، محطة ، أو ميدان ، ويستجدي الواقفين ، عملة صغيرة ، يعطيها للحارس ، ليسمح له بدخول المرحاض ، ولما لم يسعفه أحد لا يسيطر الرجل علي جسده ، وتنبعث منه رائحة كريهة .

وكنت أحب للكاتب ، أن تتجاوز القصة ، الحاجة الجسدية ، فلا يقف عندها ، ويتخطاها إلي الموقف الإنساني . كأن تأخذ الشهامة أحد الواقفين ، أنه رغم تأففه من منظره مثلا ، يعطيه دوره ، أو قطعة من النقود . أو يريهم خفير المراحيض ، أنه رغم ما يأخذ ، بغير وجه حق ، فهو أكثر إنسانية منهم ، يتنازل عما يأخذه ، ويدخله أحد المراحيض ، متجاهلا " الأساتذة " الواقفين ، وهذا السلوك ، كثيرا ما نراه فى الحياة العامة .

وفى قصة " أم " ، لم يتجاوز الكاتب أيضا الحاجة الغريزية ، أم لم تنجب ، تدفعها غريزة الأمومة إلي تقريب فم كلب صغير ، من أحد ثدييها .. وكان يستطيع أن يتجاوز مفهوم الأمومة الغريزي ، إلي مفهوم الأمومة الإنساني ..كأنسنة الكلب ،

ومحاولة مناغاته ، هل أذكر حوذي تشيكوف وشكايته متاعبه لحصانه ، كأنه إنسان مثله ، وهل أذكر بامرأة فوكنر في الصخب والعنف ، عندما فقدت طفلها في مجاعة، واللبن يملأ ثدييها ، فأرضعت رجلا كبيرا ، حققت أمومتها الغريزية ، بتلقيم ثديها أحد الأفواه ، وحققت إنسانيتها بإطعام رجل جائع .. والحدب علي إنسان مهما كان سنه . وكنت أحب للكاتب ، أن يحذف السطور الأولي في القصة ، التى شملت حديث البطلة مع أم الراوي عن معاناتها في حياتها فليس لها دخل بقصتنا ، وبدت زائدة . ويظهر التزيد أكثر في القصة القصيرة جدا ، علي عكس ما قد يعتقد بعضنا. و في قصة " تماثل " الراوي وصديقه ، ذهبا لإشباع حاجتهما الجنسية " الجسدية " ، إلي امرأة تمارس البغاء ، وبينما يمارس صديق الراوي الجنس معها ، كان الراوي يجالس طفلها الصغير ، الذى استقبلهما بنظرة حيري . ويتعمق الراوي ملامحه ، فيجدها منتزعة من ملامح صاحب صورة معلقة ، علي الحائط ، عليها شريط أسود ، فيدرك أن المرأة تمارس البغاء ، لحاجتها، بعد غياب العائل ، وها هو الطفل لا يرفق به " با .. با .. م .. سا .. اا .. فر .. " وعندما جاء دوره ، لم يستطع أن يزيد حيرة الصغير ، الذي كان يضاحكه ، فأعطاه لعبته وانصرف . لقد تخطي الراوي حاجته الجسدية إلي حاجته الإنسانية ، فلم يستطع أن يمارس مع إمرأة دافعها الحاجة ، ولم يستطع أن يفسد ابتسامة الطفل . وفي قصة " كأن شيئا " ، عزف أكثر عمقا ، علي الهم الاجتماعي . الراوي ، وهو الكاتب ، فيما أري ، نشرت له جريدة معروفة ، قصة قصيرة ، فرح بها ، وأراها لحبيبته ، ينشد طبعا ، مزيدا من التواصل معها ، واعترافا وتقديرا لموهبته .. وفي صباح اليوم التالي ، حين يقرصه الجوع ، ويذهب ليبتاع طعمية ، يلفها له البائع في ورقة من جريدة ، ويجد قصته مبقعة بالزيت . أي أنه لكي ترقي ، لا يكفي النجاح الفردي ، لابد أن يكون المجتمع مرتقيا معك ، مقدرا لابداعك ، حتي لا يلطخه بالزيت المحروق ، عندئذ يكون الترقى الفعلي .

وقصص هذه المجموعة تقرأ كوحدة متناغمة ، فقد تجد قصة تعرض مضمونها بشكل تظن أنه قدري ، فالأمور هكذا ، ولا ذنب لأحد . قصة " من أجل شتاء " ولكن سرعان ما تجد الإجابة في قصة أخري ، الفقر هو السبب ، وأن موقف الراوي المبهم في قصة ، تفسره أخري ، والراوي المهتم بكتابة القصة ، والمتمرد علي نوعية الدراسة التى يتلقاها ، لا يبعد مسافة كبيرة عن الكاتب نفسه .. حيث أنه ما زال طالبا ، كما في مجموعته ، وهو من مواليد ١٩٧٧ . وأري أن القصص التي تهتم بالهم الاجتماعي ، أنضج وأكثر فنيه ، كما رأينا في قصص " الميزان " ، " تماثل " ، " كأن شيئا " ، ربما لأنه خبرها أكثر ، وعايش أبطالها ، أو مر بظروفهم .

هذا والكتاب صادر عن مطبوعات إقليم شرق الدلتا ، التى يشرف عليه الأستاذ محمد محمود سويلم .

أزمنة صالح البحر

هل هو زمنه ، أو أزمنة الآخرين ، كما يدعي محمد صالح البحر فى مجموعته الصادرة عن سلسلة إبداعات بهذا الإسم ، ازعم انه زمنه ، وزمننا جميعا ..

زمنه فى القسم الأول المعنون بـ " تلك القرية ما زالت تزايلنا بيوتها القديمة " ، أو بالأحري لا تريد أن تزايلنا بيوتها القديمة . هل ندخل عباءته ، أو عباءة أبيه . لنتمكن من الوصل مع امرأة ، حتى لو كانت الساعة .. ساعة صلاة الفجر .. قصة " العباءة " أم ترانا نختزل العلاقات الإنسانية والتراحم بين الرجل وزوجته ، ولا تتبقي إلا المضاجعة ، بعد أن يسلت الزوجة من وسط بناتها وبناته الخمسة ، ليتم الفعل وهو يدعو الله أن يكون الحمل ولدا هذه المرة ، بعد هاتيك البنات ، يشق الأرض بالفأس ، ويحقق حلم الأب بولد يأتي من بعده يحمل اسمه .

أم ترانا ندخل معه تحت الغطاء ، وشيخ طاعن فى السبعين ، مازال متمسكا بالحياة ، يداعب زوجته ، حاملة شقاء ستين عاما علي ظهرها ، وما يزالان يتكلمان عن العيب . أي عذوبة ..وأي تمسك بشعلة الحياة . قصة " العشرة الطيبة " ..

أم نستعيد معه ذكرياته وهو فى الطريق إلي قريته " المعني " ، هكذا اسمها فى قصته " صورة الحزن الدائم " و المباني الطينية القديمة علي حالها ، والحياة القاسية الفقيرة المملة ، لم تتقدم شعرة ، رغم الحديث والإعلام ، عن التقدم . وعن .. وعن .. ولكن هل يهرب من ذكرياته .. إنه يحبها رغم ما فيها من قسوة وإيلام للنفس ، ولم يكن هناك داع لأن يزيل قصته بـ " لطفولتي القديمة ، ذكري عبقة فى نفسي " بعدأ أن عشناها معه فعلا .

هل رأيت .. كيف خدعك عزيزي القارئ ، مؤلفنا الشاب .. مدعيا فى هذا القسم من كتابه ، أنها قريته وناسه .. ثم ها نحن نري أنها قريتنا وناسنا .. وأليست تلك القرية التى صورها ما زالت موجودة سواء فى قبلي أو بحري .. أو حتي فى دول العالم المسماة بـ " الثالث " ..

أوليس تمسك العجوز بالحياة ، هو تمسك كل منا .. مهما كان الكبر، أو المرض، أو العائق أو لا تدفعنا تلك القصة للتمسك بالحياة ، أو قل هي تدفعنا للتمسك مثلهما بالحياة .. مهما كان العائق ..

وهذا الذي يدعو أن يرزقه الله بالولد .. وعنده امرأته الجميلة ، التى كم ود أن يراها ويتأملها فى ضوء الشمس .. ولا تتحقق أمنيته .. ولا يحقق إنسانيته .. كل ما

يستولي عليه أن يأتي الولد .. ليطرد نبوءة النساء الخبيثات أن امرأته شؤم ولا تلـــد إلا البنات .. وكأنهن الساحرات الشريرات في الأساطير القديمة .

حرمته التقاليد البالية ، التي لا معني لها، من التمتع بامرأته الجميلة ، ومواصلـة الحياة مع بناته والأنس إليهن ..

أوليس هذا النموذج شائعا بيننا .. وإن كان علي تنويعات أخري ..كم منا كـــانت الحياة ، ومعطياتها الشهية في متناول يده ، وإنسانيته من الممكن مزاولتها ، ولكـــن الخرافة ، والأعراف الخاطئة ، تحول دون ذلك ..

أتري .. بعد كل ذلك ..هي قرية المؤلف .. أم تراها قريتنا جميعـــا .. وهـــؤلاء الأشخاص ..نحن منهم .. وبعضهم يعيش بيننا ..

وقصص هذا القسم فيما أري .. من أنضج القصص في الكتــــاب ، وقصتيـــه " العشرة الطيبة " و " الولد " حافلتين بشعرية عالية ، شـــعرية الموقـــف الإنســـاني ، وعذوبته .

نخرج من قريته إلي القسم الثاني المعنون " ذوات ملتبسة " ها هو الولد قد شـــب عن الطوق .. ويتطلع إلي جارته حينا .. فيلتبس علينا الأمر .. أو هو يريد لنا ذلـــك .. فيتم التواصل في الخيال ، حتي لو تحطم زجاج نافذته ، أو شرفتها المواجهة لـــه ..

ولكن الجنس لم يستول عليه بعد . يخرج للبحث عن دواء لابنة أخيه . أتراهـــا ابنتنا جميعا .. أم تراها مصرنا .. وهو يبحث لها عن دواء عزيز المنال .. وهنـــاك من يوصي أنه موجود عند العسكر ، وكأننا لم نشبع من العســـكر ومـــن أدويتـــهم ، و مصرنا المريضة زادوها مرضا.. وبالتأكيد فالدواء ليس عندهم .

والمرض ، يسلم إلي المرض .. فـ " الدواء " اخر قصة في القســـم الثـــاني ، تسلمنا لمرض بدن من شب عن الطوق .. ولكن الحب بعيد المنال .. فالحب المبـــاح يقضي عليه الفقر .. وتهرب المحبوبة إلي من يركب العربة " ضوء أحمر " ولا تبقي له إلا الذكريات ..

أما إذا تم التواصل ، فهو تواصل محرم ، حتي لو ادعت صاحبته " أنه الحـــب القلبي والهدي المبين " ص ٨٠ ، أليست هي الزوجة ، والتي ربته صغـــيرا . ولـــو انتفى المحرم كما في قصة " الزمن والاخر " فهو مقضي عليه أيضا " تجرنـــا الان لأحباء القبض باسم الحرية والمحدودية " ص ٩٣ . وليست صدفة أن صاغ المؤلـــف هذا القسم بشاعرية .. فهي تنويعات علي عدم التواصل ، نماذجها نعرفها جميعـــا .. ولولا الشاعرية ، ما حقق المؤلف فيها جديدا .. ولعل صياغته تلك .. تجعلنا نفســـهم سر إهدائه مجموعته لـــ " يحي الطاهر عبد الله " .

نشيد سعد القرش

مرافئ للرحيل . هل كان من الضروري أن يرحل سعد القرش عن قريته ليصل إلي شجرة الخلد ، وهل الرحيل فى الزمان والمكان ، أم فى المكان فقط ، وهل رحل ليستقر بعيدا . مع العلم أن المرافئ ، إذا كانت للرحيل فهي للاستقبال أيضا .

ومن يزمع الرحيل ، يرتب بيته قبل المغادرة ، فكانت مجموعته القصصية الأولي ، المعنونة بـ (مرافئ للرحيل) محاولة لتلمس الجوهري والأصيل فى قريته ، وحياتنا ، حتى لا تضيع من الذاكرة ، أثناء رحلة البحث ، لكن رحلة البحث، كما فى الأسطورة لا تخلو من المغامرة ، فكانت روايته " حديث الجنود " .

وهل ثمة حديث للجنود .. ؟! . هناك أوامر للجنود . وفى حالتنا فالأوامر مفروض أن تكون الاستعداد لمواجهة العدو الأمريكواسرائيلي ، ولكنه بدلا من ذلك ، جاءت أوامر للاصطفاف بجوار العدو الأمريكي ، لمواجهة (العدو العربي) العراقي .

ولم تخل المرافئ ، من التمهيد ، لما هو قادم ، أو استشعاره ، ففيها قصة ، خلافا لجو باقي القصص ، تتحدث عن جندي سقط ، ونجد اهتماما من الراوي به وبأهله .

وهاهي الثرثرة ، تنتقل من هذه القصه ، إلي الجنود فى روايته ، بعد أن خلت حياتهم من الكر والفر ، والطعان والمنازلة .

ولكن الأمر لم يخل من المغامرة ، أو إن شئت تجاوز المراد . فعيد ربه هائم بسلاحه فى صحراء سيناء ، متجاوزا " خط أ " أو بالأحري غير معترف به ، أى غير معترف بأي اتفاق بيننا وبين العدو الإسرائيلي . وها هو يبحث عن أوراق " زاميروولف " ، التى تتحدث عن قتل الأسري ، وهو نفسه ، الذي قتل المأمور لأنه سب أمه . ما يهمني هنا ، أنه رغم ضياعه ، لم يتحمل أن يسب أحد أمه . المرأة ، الشجرة ، التى سيصل بنا القاص إليها ، فيما بعد ، للتعرف عليها ، فى مختلف الأحوال . زوجة ، وآنسه ، ومومس ، وأم ، وفلاحه ، وامرأة من قيعان المدن .

وكلما اقترب موعد الإجازه ، أحس بطلنا بالكسوف . ماذا سيقول لزوجتــه ، إذا لم تثمر مداعبتها له . التفكير فى الأنثي كإنسان ، يشــعر أمامــها بالكســوف ، ولا يمتهنها لأنها بدأت المداعبة ، وهو عاجز عن الاستجابة ، ولا يفتعل موقفا ، يــداري به عجزه ، والأهم أنه لا ينكر عليها حقها ، أن تكون البادئة فى المداعبة ، ولا يــوي فى ذلك أي عيب .

ويطيل المؤلف ، فى وصف امرأة تلد ، صفحة ونصف من القطع المتوسط . هل يؤكد معاناة المرأة ، أم ليرينا ، اهتمام من حولها بــها ، الاهتمــام الــذي يتضمــن الاحترام .

وفي نفس الرواية ، صفحتي ٦٠ ، ٦١ ، يحلم أحد أبطاله ، بمدينة خاليــة مــن اللصوص والشحاذين والجواسيس والقوادين والسماسرة . القــواد مرتبــط بــانحدار المرأة ، واستغلال ضائقتها الاقتصادية ، وميسر لــها احــتراف الدعــارة . وأتــي السمسار بعد القواد مباشرة . فالسمسار يتاجر ، أو ييسر المتاجرة فى كل شئ حتــي الإنسان نفسه لو لزم الأمر .

وإقامة مدينة فاضلة ، لا يكون بالحلم فقط ، ولكن .. بالعمل علي إرســاء قيــم جديدة ، قيم تؤكد إنسانية الإنسان ، وتجلو ما علاها من صدأ . تلمــس كاتبنــا فــى المرافئ بعض القيم الأصيلة .. لكن ، التكالب علي العيــش فــى زحمــة الحيــاة ، والاستغلال ، وافتقاد العدالة ، طمس كثيرا من هذه القيم ، وغابت البديهيات .. وعلا الغبار الفطرة ، فهل يكف الإنسان عن توقه للحرية . ثمة شجرة للخلد . وهى مرفــأ أيضا .. أي يخلد الإنسان إلي الشجرة . والمرفأ هنا ، غير مرافئ الرحيل ، مورق ، ممتد بأغصانه وفروعه ، مظل مزهر كل عام، ويثمر .

" شجرة الخلد " كتابه الإبداعي الثالث ، ومجموعته القصصية الثانيــة ، حــوت ثماني قصص . أربع منها يبدأ عنوانها بكلمة " بورتريه " . والبورتريه فــي الفــن التشكيلي ، يعني رسم الوجه أو الشــخصية والبورتريــه النــاجح ينطــق بأعمــاق الشخصية، وتكاد تحس ما يموج فى داخلها . ويمكن التعرف ، إلي حد كبير ، علــي الشخصية ، من تأمل الوجه المرسوم .

" بورتوريه للانسه " ، " بورتريه لأرملة الســجين " ، " بورتريــه للعجــوز " ، " بورتريه للصبي " ، وهذه القصص ، بالإضافة إلي القصص الأربعــة الأخــري ، تدور حول المرأة . زوجه تود استعادة فحولة زوجها ، آنسه لا هم لــها إلا إشــباع رغبتها ، زوجة سجين متعطشة للحب ، امرأة مهجورة ومتطلعة ، مومس ، زوجــة تسحب زوجها من وسط الفلاحين فى العمل ، دون خجل ، لتضاجعه .

ماذا يعني هذا .. ؟!

نحن أمام بورتريه ، للمرأة ، فى مختلف أوضاعــها الاجتماعيــة والحياتيــة. وعنوان المجموعة " شجرة الخلد " وهو اسم إحدي قصصها ، دال أيضا علي ذلــك . الشجرة نخلد إليها ، هربا من الحر ، أو التماسا لنسمة ، أو هواء نقي ،وكذا المرأة .. نخلد إليها وإن اختلفت الأسباب ، هرباً من الغربة ، وللتحقق والتواصل . والشــجرة

تمتد فروعها فتظل الجميع ، (الأم) . والشجرة لها فروع ، (الأولاد) والشجرة نقطف منها الثمار ، (إشباع الرغبة) . وفى صفحة ١٦ من هذه القصة تقرأ هذا النثر الجميل :

" يا أيها الذي يستطيب ولا يستجيب لمن وهبت نفسها رغبة فى غاتب قد يعود ، ورغبة فى مقيم تخشي هروبه وشرود نظراته مستعيذا بمن فى القلب عرشه لماذا التردد فى موضع التدله والقرب لا الذل والرعب مما تمنيت أن تمنحك نظرة لتسبح فى ملكوت عينيها مستظلا بشجرة لم تكن " للخلد يوما " .. إلي أخر هذه الصفحة . وعبارة " لم تكن للخلد يوما " " ليست متناقضة مع العنوان " شجرة الخلد " . المرأة علي إطلاقها ، والتى يخلد إليها المرء .هي هنا تصدر عن حالة خاصة فى هذه القصة ، فالمرأة التى تمناها بطلنا ، طالعا ، نازلا ، أصبحت فى متناول اليد ، وبرغبتها وهي التى لم يحلم يوما أن يخلد إليها ، لكنها وقد أصبحت فى المتناول ، يتردد ويخشى الوصال معها .

لماذا التردد .. ؟!

هل هي رواسب فى النفس من التابو والتحريم .. ؟!

ويا للسخرية ، إذا أراد أن يأتيها رسميا ، فيكون معزيا . فهل كان يعزيها ، أم يعزي نفسه ، فى موت أبيها ، الأب ، رمز السلطة ، والتقاليد البطريركية .

" خرج ، لينتظر قليلا ، علي السلم ، استعدادا للمشاركة فى الزحام ، أمام باب الشقة ، مع جيران انتزعتهم أيدي الصرخات من أحضان النوم " ص ١٧ .

مع أن المفروض ، وقد مات الأب ، البطريرك المسيطر ، أن تنحل العقدة ، ويتم التواصل ، لكن الجبال الراسخة من التقاليد البالية ، لا تزال بسهولة . " متي نتخلص من هذا الدرويش " ص ١٢ .

لا يبدو أنه سيتخلص منه سريعا ، " أحاطت نفسها بنفسها ، وهو يدعي عدم الفهم، تنحني الشمس نحو المغيب ، يمتد ظل الطبيعي شعرها ، وهو لا يقترب من الشجرة " (المرأة) ص ١٣ . فما زال يرعي " طيفا جسدته خيالاتك " ص ١٦ .

وفى قصة " بورتريه للصبي ، سيطر البطريرك أيضا علي حياة الصبي ، فالصبي " تكهرب حين رأي امرأة تدخن الجوزه " و " ابتسمت له بائعة العيش الفينو والطعمية " ص ٦٠ ، وسرح فيها واستشعرها حسيا " وكانت المرأة أطلي بقصة شعرها وضفيرتيها السارحتين من تحت المنديل إلي ردفيها وثدييها " ص ٦٠ . هذا الصبي علي أعتاب النضوج ، وتستر علي غجرية تلد ، ومع ذلك لا يتركه الأب يواصل اللعب مع أقرانه . وأمه تعجز عن حمايته من غضب (الأب) . " بنظرة واحدة التزمت الصمت ، قبل أن يأمرها به " ص ٦٦ فالأب قامع للمرأة ، وللصبي ، الجيل الصاعد، معا . ولكن .. هل يستسلم هذا الجيل .. ؟! فكر الأولاد والبنات فى كتابة شكوي للنقطة ، ليبيت الأب فيها ، ويترك الصبي يلعب علي هواه . اكتنف الخوف الصبي . وسخر من صاحبة الاقتراح . فهي لا تجيد الكتابة ، وهل يستطيع

جاهل أن ينال من السلطة ؟! ومن يعرف الكتابة (الصبي) يستنكر الأمر (الشكوي) كأنه يدفعنا إلي القول :

هل من المعقول ، أن نشكو البطريرك للسلطة (العسكر) ، وهم الذين يدعمونها..؟! .

ويحاول الصبي المقاومة ، رغم الإحباط " في الضوء المختنق مشي علي أطراف أصابعه ، إلي الحجرة الأخري يحضر الورق والقلم . حاصره صوت أبيه زاعقا ومتوعدا ، نسي أمه ، والقلم والورقة والعيال ، واللعب ، والمدرسة ، والنقطة ، والمرأة التى باسته فى السوق ، والمرأة التى أكلت كوز الذرة (الغجرية التى كانت تلد) ، وابنتها الصغيرة ، والحمار والرجل القزعة ، والسيارة النقل والسائق ، ونام مكانه مقرفصا .. ولم يجرؤ علي العودة إلي أمه " ص ٦٦ .

إن بذرة المقاومة المتمثلة فى شروعه لإحضار الورقة والقلم رغم الضوء المختنق ، يكبتها ويحاصرها صوت الأب الزاعق .. وينتهي به الأمر إلي القرفصاء ولما كان حال القرفصاء ، لن يدوم ، فلابد للصبي أن ينهض ، وأن يفرد رجليه ، بل وان تطول رجلاه مع الأيام ، ويمضي فى تطلعه نحو الجنس الآخر ، الذي بدأ يحس ويتفاعل معه كأمر فطري ، وطبيعي ، ولكنه سيفعل ذلك ، وإحساس بالذنب يؤرق أعماقه ، ولن يكون الجنس ، وممارسة ما هو طبيعي وفطري ، اللعب البرئ ، والتواصل الحميم ، خال من المحرمات والتابو ، بسبب الصوت الذي حاصره صبيا، ورسب فى أعماقه الإحساس بالذنب .

وها هو بطل " بورتريه للعجوز " يهمل نداء الجسد الفطري ، فيترك المرأة التى طالما تمناها ، ويذهب لتوصيل امرأة عجوز ، منتهزا فرصة لينشل حافظتها .

قد يكون صوت الحاجه هو الذي دفعه لذلك ، ولكن هذا الصوت (الفقر) ، صنو (التقاليد البالية والجهل) جعل الخطب فادحا . فقد خسرت العجوز ، حافظتها، وخسرت المرأة (المومس) أجرها ، ولما كانت بنتا لهذه العجوز ، فكأنه بإهماله الأنثي فيها ، قد سرقها مرتين ، حافظة أمها ، وعدم دفع أجرها .

كما خسر وهو الأهم ، عدم تواصله معها ، وهو الذي تمناها ، وجعلها تخسر تواصلها معه ، وهي التى انتظرته .

ولكن حاجة المرأة للرجل ، وحاجة الرجل للمرأة ، غلابة . فى القصة الثالثة ، من القسم الأول " بورتوريه لأرملة السجين " . مُفرج عن حديثا ، يحمل سلاما لزوجة سجين . من البداية ، نتوقع حدوث شئ بينهما . وهذا لا يضعف القصة ، لأن القصة ، هي سعي المفرج عنه نحو امرأة السجين ، فما بين ذهابه لها أول مرة ، ويأسه من العثور عليها ، وحتي ذهابه لوصالها ، تسقط كثيرا من الاعتبارات الأخلاقية ، والاجتماعية ، ونقلع بحاجتهما الجسدية ، والإنسانية ، كلٌ إلي الآخر . ونراه شيئا طبيعيا . وفى هذا يكمن جمال القصة ، وتنبع حقيقتها الجمالية .

وإذا كانت هذه الحقيقة ، قد قادتنا إلي عدم إساءة الظن بالإثنين ، فإن بطلة " بورتريه للأنسه " آخر قصص هذا القسم ، تجاهر بهذا دون مواربة . الأنسة

تمارس ذاتها، وتتواصل مع عدة أشخاص مع أنها مخطوبة . ونحن لا نعرف مدي توفيق هذه الخطبة ، فواضح أن هذا الأمر لا يهمها ، وما دامت في فترة الخطبة ، الاختبار ، فهي تستطيع التراجع في أي وقت . علي أي حال لا تحفل القصة بهذا ، ولكن تحفل بالأنسة ، التي تري ، ممارسة ما يحلو لها ، وما تراه يؤكد ذاتها ، وفي كل مرة تقول لمن تواصلت معه " لا تسيء الظن بيّ ". وما لم تقله الفتاة ، لا تظنني عابثة ، لأنني فعلت ذلك ، لقد خلقت لكي أتمتع وأمتع ، فلا تسئ الظن بي لست عابثة .. ولكن هكذا خلقت .

وإذا كان هذا القسم من الكتاب ، قد حفل بالصوت المسيطر ، صوت الحاجة الجسدية ، في تداخل مع صوت الأب المسيطر والحاجة الاقتصادية ، فهو في آخر قصصه ، يؤكد صوت الحاجة الجسدية ، والإنسانية نافيا ما عداها " لا تسئ الظن بي " .

وفي القسم الثاني ، حيث قصص " وله ، و " بورتريه للصبي " و السكين " نجد صوت الحاجة الجسدية شيئا طبيعا ، باستثناء " بورتريه للصبي " ، وإن كانت لا تخلو من تفتح وعي الصبي علي الجنس ، وهو شئ طبيعي أيضا .

في قصة " وله " " قضم لقمة سدت أشداقه ، عطس بشدة ، فانتفض ورك الفرخة (الفرخ) من يده ، خارجاً من العيش ، وغافلتنا زوجته ، وبهدوء سحبته " ص٥٣. فمع أنه حقها الطبيعي ، فقد غافلتهم المرأة ، طبعا . خوفا من الغمز واللمز .. أو خجلا .. أي أن بداخلها رواسب تجعلها تخجل من ممارسة حقها الطبيعي " وبهدوء سحبته " .. ولا يسحب الإنسان إلا ما يملكه . أو يسيطر عليه ، فلماذا تغافلهم .. ؟!

وصبينا الذي سيزيد وعيه بالجنس في القصة التالية " بورتريه للصبي " بدأ تفتحه هنا فعيناه لا تغفلان " . إحداهن تحمل قصعة الطين ، تترجرج عجيزتها الريانة وقالت :

- عيل .. ! صحيح " ص ٥٤ .

المرأة أدركت أنه لم يعد عيلا ، وتتعامل مع هذه الحقيقة ، خلافا للأب ، الذي يتجاهلها ، ويحاول كبت فتوته الطالعة ، أما المرأة فتعترف بها في يسر . " انجذبت إليها (الصبي) ورفعت ذراعي ، أتعلق بيدها الهاربة مني ..كانت يدي متسخة ، فقالت :

" حتى أنت يا جحش " ص ٥٥ .

تستنكر أن يمد يده لها .. واشية في الوقت نفسه بإحساسها به ، " حتى أنت يا جحش " . أي من الممكن أن يمد يده ، ولكن لسواها .

وفي قصة " السكين " ثالث قصص هذا القسم ، زوجة أخري ، تحاول استعادة فحولة زوجها " هي التي تخشي الشماته وتحرقها جمرات الليالي .. ولا يطفئها إلا طشت (طست) الماء المنسكب أمام العتبة . ثم تواري الباب ، وتجلس في وسط الدار ، تتشاغل – رغبة في أن تراها الجارات – بشعرها المغسول .. تتساقط منه

حبات اللؤلؤ ، منحشرة فيه ، راحلة عنه .. علي رأسها تحبك المنديل وفي دلال تنساب الضفيرتان .. تتلقي التحايا ، وتنثرها علي الجارات " ص ٧٦ .

تحاول المرأة هنا ، دون خجل من إعلان ، أن تشفي زوجها ، ولم الخجل .. وهي تستعيد حقها الطبيعي . إن هذه المرأة .. لا تخجل مما هو طبيعي . وتتباهي أمام الجارات .. بل وتتلقي التحية ، لأنها مارست الجنس ، هنا المرفأ ، هنا حقيقتها الجمالية . المباهاة بممارسة الجنس بنجاح ، وأن نلقي التحية إذا فعلنا ذلك ، بل علينا أن ندلق ماء الاستحمام إعلانا للغادي والرائح ، أننا مارسنا حقنا الطبيعي فى الحياة . إن هذه الحقيقة الجمالية هي المرفأ الذي ينبغي أن نخلد إليه .

فى القسم الثالث ، وهو قصة واحدة بعنوان " الجلاد " نجد أن المنع والتحريم ، أكثر فى وطننا العربي خلافا لمصر . " ولا تشاهد فيها إلا أفلام الكاراتيه ، فكل ما عداها محظور، خلسة قد تقع عيناك علي مشهد من فيلم مصري . أو أجنبي . قبل بلوغ المقهي ، وإذ تصل يغلق الجهاز فجأة " ص ٨٥ .

أفلام الكاراتيه فقط المسموح بها ، استبدال العنف بالجنس ، استبدال بالطبيعي (الجنس) غير الطبيعي (العنف) وها هي البطلة تصرح " بعض رجال الشرق الأقصي متوحشون " . الشرق الأقصي الذي ابتدع الكاراتيه . ولن يفلح هذا المنع فى الوقوف ضد ما هو طبيعي وفطري " بأصابعها الدقيقة داعبت شفتيك لن يجرؤ زوجي علي سؤالي " ص ٨٦ . ويسقط هذا المنع الشرعية .

وإذا استعرضنا الأقسام الثلاثة ، وجدنا تناقصا عكسيا فى عدد قصص كل قسم .

القسم الأول يحوي أربع قصص ، والثاني ثلاثا ، والأخير واحدة ، فإذا كانت قصص القسم الأول ، يسيطر عليها صوت الأب ، الماضي، والتقاليد ، فمعني ذلك أن لها الغلبة فى حياتنا . والقسم الثاني ، حيث يسيطر الصوت الطبيعي ، نداء الجسد الفطري ، فرغم مشروعيته، فما زالت الموانع تحاصره ، ومازال تحت جناح الصوت الطاغي ، وقصة من هذا القسم " بورتريه للصبي " يغلب عليها صوت الأب المسيطر .

والقسم الأخير ، قصة تؤكد علي المنع والتحريم ، قصة واحدة ، أي لن ينجح المنع والتحريم فى إعادتنا إلي الوراء ، مهما كانت الطقوس ، ومهما كانت الحجة .

أول جملة فى الكتاب " فى صعوده إلي حجرة السطوح " وأخر جملة فى الكتاب " وكنت تتعري للجلاد " . تبدأ القصص ببطل صاعد .. يرتقي نحو التقدم ، حتي لو كانت العاقبة أن يتعري للجلاد فى نهاية رحلته . قد يتعطل أحد الأبطال أو يتعثر ، ولكنه مستمر فى الترقي " وكنت " أي الاستمرار ، رغم الجلد والإهانة . وإذا كان الجلد يحدث فى إحدي الدول العربية ، مثل السعودية ،أو اليمن ، حيث يعمل أبناء مصر ، مع أبناء جنسيات أخري ، وإذا كانت أول قصة " شجرة الخلد " وفي ص ١٦ " بادئا بالوجه دلتا النيل " فمعني هذا أن التحريم يعم المنطقة كلها ، ولا خلاص لنا ، إلا بخلاص المنطقة التي نعيش فيها فى مركز القلب ، سواء من ناحية الجغرافيا أو من ناحية التحضر والسبق .

فلماذا هذا التحريم ، ومنطقتنا هي أول من تغنت بالمرأة ومفاتنها ، وقدمت ذلك في نشيد الإنشاد ، في العهد القديم ، وصف حسي رائع ، يتغني بمفاتن المرأة ، دون مواربة ، فمن أين أتت المواربة ثم التحريم .. ؟!

الأصل ، أن المرأة والرجل ، يكمل كلٌ منها الآخر ، إنسانيا وجسديا ، ويمتع كل منهما الآخر ، ويستمتع به ، ويقضي علي غربته ، ويشتركان معا في الإنجاب ، لإعمار الحياة بإطراد .

لقد جاء التحريم ، عندما برزت الملكية إلي الوجود ، وتعاظمت الثروة ، وأراد صاحب الثروة أن يورثها لابنه من بعده . فمن يضمن له أن امرأة بعينها ، أنجبت من صلبه هو دون غيره ، إذا كان الجنس مشاعا .. ؟! لذلك كان التضييق علي المرأة ، حتي يضمن الرجل أن يكون الوريث من صلبه ، وبدأ العيب والحرام . ولاحظ أن أغلبه بالنسبة للمرأة فقط . وأن المجتمع يغفر ، بل لا يأبه ، بأي زلة للرجل . يغض الطرف عن تعدد العشيقات ، ويقبل تعدد الزوجات . ولا يسمح ، ولا يغفر ذلك للمرأة، ويصل الأمر أحيانا إلي القتل .

اكتفي مؤلفنا بالإنشاد ، وصور المرأة ، تمارس حقها الطبيعي في المتعة ، والإشباع الجنسي ، والتحقق الإنساني ، فكأنه بهذا التصوير ، يتساءل ، إذا كانت هذه الممارسة طبيعية ، فلماذا التحريم والتقاليد العفنة إذن .. ؟!

وإذا كان نشيد الإنشاد ، قد تغني بمفاتن المرأة دون حرج ، وكانت إفادته المضمرة ، المرأة والرجل ، للإمتاع والاستمتاع ، فإن سعد القرش يضمر إفادته ، أيضا ، وهو ينشدنا جمال المرأة . " فتتدلي الضفيرتان ، تصافحان الأرض المرشوشة بماء الاستحمام .. تحرسان جيدها الجميل .. ترمي اليمني إلي الشمال ، والأخري إلي اليمين . تتلفع بهما وتتباهي " ص ٧٦ .

أي جمال ، وزهو أنثوي ، أحست بهما المرأة ، بعد أن مارست حقها الطبيعي ، ورشت ماء الاستحمام " وتنساب من رأسها ضفيرتان تتسللان من تحت الطرحة ، وتنامان علي صدرها الممتلئ ، وتتلألأ منهما القطرات ، وعيناها الصافيتان ، في الكحل ، بلون الطين " ص ٥٤ . ويستمر الإنشاد " . جواد جامح حملك طائرا نحو ملمس الملبن الداعي فلبيت بادئا بالوجه دلتا النيل غير منته بالنهدين ضفتيه وبينهما يجري النهري شمالاً جنوبا " ص ١٦ .

وتنويعة أخري ، من النشيد ، في قصة " بورتريه للآنسة " صفحة ٣٩ " استلقت علي السرير ، تعرت إلا من شعرها ، راحت تساويه وتعابثه ، وتمشطه بأصابعها الدقيقة ، احتضنت نفسها بقوة " وتلك المعجبة بجسدها ، لن يكتمل اعجابها ، إلا إذا أعجب بجسدها آخرون وطول القصة ، تمتع وتستمتع ، وتكرر عبارتها " لا تسيئ الظن بي " .

إن سعدا وهو يؤسس نشيد إنشاده ، لا يتغني بمفاتن المرأة فحسب ، ولكن يتغني بالمرأة في مختلف أوضاعها الحياتية ، المرأة ، كمطلق في " شجرة الخلد " ، الزوجة في " وله " وزوجة من طراز آخر في " السكين " ومحرومة في " بورتريه لأرملة

السجين " والتي في شوق دوما " بورتريه للأنسه " وهي شوق الأخرين " بورتريه للصبي " و " بورتريه للعجوز " وحتي في " الجلاد " كشوق ممنوع ، أو محرم .

وما دام هناك نشيد ، فهناك مسير . نشيد الوطن ، يسير بنا نحو الرفعة ، نشيد الجنود يسير بنا نحو النصر . فإلام يسير بنا نشيد سعد القرش .. ؟!

أتراه يسير بنا إلي مدينته الفاضلة ، التي حلم بها جندي في روايته " حديث الجنود " .. ربما .. أم يسير بنا نحو مدينة نبذ أصحابها التقاليد البالية ، والتابو .. وخلدوا إلي مرفأ حقيقة المرأة وال رجل الفطرية الخالدة ، أم إلي الاثنين معا.

......

(باب السفينة) .. باب النجاة ..

فى الفترة من ٣/٣١ حتى ٥ / ٥ / ٢٠٠٢ ، نشرت " أخبار الأدب " رواية سعد القرش " باب السفينة " فى خمس حلقات .

ها هو عاصم ، يترك قريته ، ويعمل صحفيا فى إحدي المجلات . ولم يكن استقراره فى القاهرة سهلا . فـ " أبوه الذي لم يقبله قط ، عارض طويلا فكرة رحيله عن الأسرة ، من قريتهم البعيدة علي نيل الدلتا ، حيث كان الإله أوزير يتخذها بيتا ومعبدا ، ولا يزال البلد يحمل اسم (بنا أبو صير) ، والي جواره بلد اخر توءم يكمل الجملة (أبو صيربنا) لابنه بيتا . ينس الأب من بقاء عاصم ، ولا يعرف ماذا درس ابنه بجامعة القاهرة ، ولا أي عمل يجيد ولا أي طريق سيسلك " فصل ٣ . فمن يترك بيت الإله أوزير ، حيث الحكمة ، ويذهب إلي قاهرة اليوم حيث تختلط الأمور ببعضها بعضا ، الدعارة مع الأحلام النبيلة ، الرغبة فى التحرر الفردي ، وخلاص الروح ، مع إغراء السقوط فى جمع المال والاستمتاع بالنساء . الرغبة فى التحرر الجمعي ، من سيطرة العدو الأمريكوصهيوني ، ومن بيدهم الأمر لا هون . من يترك بيت الحكمة لابد سيتخبط فى طريقه . ويقود هذا التخبط ، بطلنا عاصم ، إلي كتابة فقرة رئيسية ، علي نحو متداخل ، فى صدر مقال بالمجلة التى يعمل بها . ويتقرر فصله من عمله ، وفى انتظار صدور القرار ، فعاصم ، ونحن معه ، نجوب منعطفات حياته ، فى القاهرة ، كأنما يطهر ، قبل القرار القاصم .

ونظرة إلي الفقرة المتداخلة ، أو التى اختلطت فيها الأمور ، تدلنا علي حقيقة الرواية الجمالية . فهل حقا ، كانت فقرة مختلطة .. ؟!

لنقرأ معا الفقرة :

" عقد السيد رئيس الوزراء أمس اجتماعا موسعا ، وصدر عن الاجتماع بيان قرأه أحدث مانيكان فى عالم الأزياء هي الأميرة ف ، وهي حفيدة الملك فاروق ، ابنة الملك احمد فؤاد من سيدة أشهرت إسلامها ، فحطمت واجهة محل مجوهرات ، وأصيبت إحدي عيني صاحبه بشظيات نافذة ، أخرج سائقها الصبي بأعجوبة وأبدي

والده استعداده لعلاج صاحب المحل وإصلاحه ، وفي بيانها الرسمي أعربت مصر عن أسفها لتدهور الموقف الذي أصبح علي حافة الكارثة ، ودعت لاحتواء أنوثتها التي لم تشعر بها – كما اعترفت في أوراقها السرية المنشورة بعد مصرعها بسنوات– إلا مع الملياردير المصري ، وإن ظل شبح كاميلا يهدد مستقبلها ، فلا تجد الأمان إلا مع ولديها وليم وهاري ، وتتأكد أنها لن تجلس علي العرش ، واعترفت في تحقيق النيابة ببيع اللبان الجنسي ، إسرائيلي الصنع ، وحضر الاجتماع مجموعة العمل الوزارية ، ونجا من الحادث عدد قليل ، كما نجا طفل صغير يدعي موسى ، وقد خلت له من فرعون مصر ؟ لماذا لم يعد ليحاكم علي قتله مصريا بلا سبب ؟ " فصل ١ .

وإذا فصلنا جمل هذه الفقرة ، علي النحو المفترض ، أنه صحيح ، ستكون علي النحو التالي :

١– عقد السيد رئيس الوزراء أمس اجتماعا موسعا وصدر عن الاجتماع بيان قرأه وفي بيانها الرسمي أعربت مصر عن أسفها لتدهور الموقف الذي أصبح علي حافة الكارثة . وحضر الاجتماع مجموعة العمل الوزارية .

ولكي تستقيم القراءة ، سنفترض أن عبارة " وزير الإعلام " أو المتحدث الرسمي" قد سقطت بعد كلمة قرأه .

٢– أحدث مانيكان في عالم الأزياء هي الأمير ف ، وهي حفيدة الملك فاروق ، ابنة الملك أحمد فؤاد من سيدة أشهرت إسلامها ، فحطمت واجهة محل مجوهرات ، وأصيبت إحدى عيني صاحبه بشظيات نافذة ، أخرج سائقها الصبي بأعجوبة وأبدي والده استعداده لعلاج صاحب المحل وإصلاحه . واعترفت في تحقيق النيابة ببيع اللبان الجنسي ، إسرائيلي الصنع ، ونجا من الحادث عدد قليل ، كما نجا طفل صغير يدعي موسى .

ولكي تستقيم الفقرة ، سنفترض في بدايتها " أفلت زمام عربة " .

٣– ودعت لاحتواء أنوثتها التي لم تشعر بها – كما اعترفت في أوراقها السرية المنشورة بعد مصرعها بسنوات – إلا مع الملياردير المصري – وإن ظل شبح كاميلا يهدد مستقبلها ، فلا تجد الأمان إلا مع ولديها وليم وهاري ، وتتأكد أنها لن تجلس علي العرش .

ولن نحتاج إلي ذكاء كبير ، لنعرف أن المقصودة هي الأميرة ديانا ، زوجة تشارلز ولي عهد بريطانيا .

٤– وقد خلت له من فرعون مصر ؟ لماذا لم يعد ليحاكم علي قتله مصريا بلا سبب.

ولكي تستقيم العبارة ، فسنفترض أنه سقط ، من بدايتها : لماذا لم يعد النبي موسي .

أربعة موضوعات ، في الظاهر ، لا صلة تجمعها ، ولكن دعنا ندقق النظر:

في الموضوع الأول	مجلس الوزراء	مصري
في الموضوع الثاني	حفيدة فاروق	مصرية
في الموضوع الثالث	الملياردير	مصري
الموضوع الرابع	النبي موسي	مصري

كما نري ، المصرية جمعتها ، فما هي الحاجة الفنية لذلك .. ؟!

مجلس وزراء مصر ، رغم العدوان الأمريكواسرائيلي ، علي الشعب الفلسطيني، والشعوب العربية ، والذي لا يزال مستمرا ، فعبد ربه " تاه في صحراء سيناء ، بعد أن حمل سلاحه ، متجاوزا خط (أ) إلي فلسطين " فصل ٥ ، والذي له جذوره " وفي موسي لكم آية " هل حرم مصر ، التي يسكنها شخص اسم هامان ، علي نفسه بعد غرق فرعون ، ولماذا يتوعدنا أحفاده " فصل ٧ .

ان أحفاده ، لم يتوعدونا فقط ، ولكنهم شبعوا فينا ،قتلا ، وإهانة ، وتدميرا ، ويجهزون علي ما بقي من فلسطين ، ومجلس الوزراء رغم كل ذلك " يأسف لتدهور الموقف الذي أصبح كارثة " .

فهل يستطيع متحدث ، يتمتع بقواه العقلية أن يقرأ بيانا كهذا . أم الأقرب إلي المنطق أن تقرأه مانيكان في حالة خدر ، من مضغها لبانا جنسيا ، صناعة اسرائيلية، وإذا كانت الرواية صرحت أنها تبيعه ، فقط ، فمن المعروف أن بائع السم يتذوقه .

والعبارات عن النبي موسى ، تعلق علي البيان الذي اكتفى بالأسف ، أن ذلك غير كاف . فذهاب موسى بعد قتله مصريا ، دون عقاب ، أدي إلي تكرار القتل ، وعلي نطاق أوسع وأفظع . ولكن .. هل حقا استطاع موسي ، أن يهرب من المصريين .. القصة التراثية تقول أنه لم يبلغ أرض فلسطين أبدا ، وتاه وأتباعه في صحراء سيناء .

وتاريخيا ، هناك استحالة أن يهرب من مصر ، التي كانت سيدة العالم القديم ، وجندها يسيطرون عليه .

أم تري المؤلف سعد القرش ، يلمح من طرف خفي أن المسئولين المعاصرين الذين اكتفوا بإبداء الأسف ، ينتظرون ، أن تقوم الطبيعة بعملها ، كما عملت في القصة التراثية .

وهيهات .. فالذي تاه في صحراء سيناء ، هو الجندي عبد ربه ، والذي تشرد في صحراء سيناء هم جندنا في حرب ١٩٦٧ .

فعلينا ألا ننتظر شيئا من الطبيعة ، أو من السماء ، وعلينا أن نتولي الأمر بأنفسنا. وكيف نتولي الأمر ، ونحن عاجزون عن الفعل .. ؟!

حقا ، لجأت أميرة الإنجليز إلي الملياردير المصري ، حيث وجدت الحب والدفء.. ولكن حذار .. فالملياردير يعيش خارج مصر .. أما من يعيشون داخلها ، فهم عاجزون جنسيا محبطون ، مدير التحرير .. الذي يذهب إلي عشيقته في الزمالك، فقط ليقبل يديها . وزوج سماح ، يفشل ليلة الدخلة ، ولا يداري فشله ، بل

يفتري عليها بما ليس فيها . وسماح تجاهر بعريها أمام الجميع .. وتعرض جسدها ، بعد ذلك ، نموذجا للرسامين .. وعاصم ، بطلنا ، له علاقاته نسوية ، غير شرعية .. والحاجة سعاد ما زالت تأمل في عودة عبد ربه .. وابنه سمير ، لا هم له ، إلا مشاهدة مباريات كرة القدم ..

فأناس علي هذه الشاكلة ، كيف يفعلون ؟! .. وكيف يقاومون عدوا شرسا كالعدو الأمريكواسرائيلي ، أي كيف يصلون إلي ذروة الفعل والتواجد ؟! إن الاختلاط ، في هذه الفقرة التى أدت إلي فصل عاصم ، لا يؤدي إلي اللخبطة ، ولكن يتعدي – كما رأينا – إلي تجسيد الحقيقة .

فجمالية الرواية ، أن ما يبدو لنا اختلاط ، هو الحقيقة ، ولأنها الحقيقة الموضوعية ، فهي رغم فصل عاصم ، أدت إلي تحرره .

ففي آخر الفصل السابع ، سماح تمسح عرقه وتقول :

" حتي إذا كان الطوفان وشيكا ، فلنذهب إلي طبيب ، ألا يجب أن تفيق ؟

أفقت والله يا سماح . أصبحت حرا ؟

فصلوك من المجلة ؟ "

والاختلاط الذي تحدثنا عنه في الفقرة التى فصلناها، سوف يصبح سمة بناء الرواية ، وتكوين شخصياتها ، ولقد دشنت الرواية فكرة " الطوفان " كخلفية ساندة ، سواء علي المستوي التراثي ، أو المستوي المعاصر ، الاجتياح الإسرائيلي للضفة الغربية والعجز العربي ، وحياتنا الزائفة ، وأن هذا الطوفان سيغرق كل شئ ولا نجاة منه . و هناك شك ، أن يكون أحد ، قد نجا من طوفان نوح ، حقا ركبوا السفينة، ونجوا من طوفان الماء ، لكن ابن نوح لم ينج ، ولم يسمع لقول أبيه : لا عاصم اليوم من أمر الله . فهل ينجح " عاصم " بطلنا ويكون عاصما في اتقاء الطوفان المعاصر .. ؟!

إنه يهيم في عالم الأرواح ، ويأمل لو امتلك قوة ملائكية ، ليسأل الناجين من طوفان نوح : " من فتح لهم باب السفينة الذي أغلقه الرب وكيف وجدوا الأرض المغسولة من شرار الخلق ، ومتي سال عليها الدم " فصل ٥ .

فالذين نجوا من طوفان نوح ، كانت نجاتهم وقتية ، وها هم يعودون ليجدوا الأرض قد سال عليها الدم . وإذا كان الطوفان الأول ، قد غسل الأرض من الشر بمائه ، فطوفان اليوم ليس له ماء ، ليغسل حمامات الدم في فلسطين المعاصرة . ويتساءل عاصم : " أين كان سكان القارات الأخرى وقت طوفان نوح وغيرهم ممن سجلوا الحدث أو أشاروا إليه " فصل ٧ . التساؤل فيما أري موجه لسكان المعمورة الآن . أين هم مما يحدث في فلسطين ، وجميع الوسائل المرئية والمسموعة تنقل لهم ما يحدث لحظة بلحظة .. ؟!

ولكن .. هل وصل ركاب السفينة ، إلي البر المغسول من الشر .. ؟

" يريدون الخلاص والخروج من الورطة ، ولو باي خسارة . كانوا جميعا في سفينة واحدة ، اشتعلت فيها النيران ، وأمامهم وقت قصير لا يسمح لوصولهم لأي شاطئ . واختاروا الانتحار في عرض البحر " فصل ٤ . هذه الجمل في سياقها ، تتحدث عن أهل سماح ، المتهمة في عفافها من زوجها ،والأمر يتعلق بشرف العائلة، بشرفنا جميعا ، ونحن في نفس القارب ، وما زلنا نلوك كلمات عن شرف لا معني له . فهل لم نغادر سفينة نوح من وقتها ، ولم نصل إلي شاطئ .. وإذا كنا لم نغادر السفينة ، فمن أسال الدماء علي الأرض . ومن لم يلحقوا بالسفينة قد أغرقهم الطوفان ، أم ترانا لم نركبها قط .. ؟! و " كفاية مسخرة " كما تعلق الحاجة سعاد .

بينما عاصم :

" يقاوم بصعوبة ويجلس فوق السرير ، متشبثا بخريطة علي الجدار ، يمزق الشاطئ بأصابعه ، وتفيض المياه ، وتوشك امبابة علي الغرق ، يتحامل علي نفسه ، يريد أن يشهد الطوفان ، من السطح أو النافذة . يبحث عن باب السفينة " فصل ٧ .

وشخصية " عاصم " رئيسية في الرواية ، وتظهر أبعاد الشخصيات الاخري من خلالها ، وتثريها معا. ولقد امتد الخلط إلي بناء هذه الشخصية . تقمصتها حينا روح النبوة . ولكن لأن ابن أدم خطاء ، فهي تلتمس الأعذار لنفسها " وقد ارتكب بعض الأنبياء خطايا قبل اصطفائهم . موسي الكليم قتل مصريا بريئا ، انتصارا لإسرائيلي، ثم عاد إلي أهل القتيل يخبرهم أنه أصبح نبيا ، وداود الصبي قتل جالوت المدافع عن أرضه ، ثم استكثر علي قائده زوجة جميلة ، ورغبها لنفسه ، وأرسل زوجها ليقتل في معركة بلا قضية ، ويصدر الحكم ببراءة بولا " فصل ٥ .

رولا ، التي تسلك سلوكا أشبه بالمومسات ، يتوسط لها عاصم ، لتحصل علي البراءة ، وهي نفسها التي تعلمه الحكمة : " إذا تثاءبت زوجتك يا عاصم ، وأنت تداعبها ، أو تمارس معها الحب ، فحاول احتواءها أو طلقها ، التثاؤب محاولة فاشلة لروح تريد الانطلاق والتحرر من أسر الجسد والسجان " فصل ٤ .

وعاصم ، لا يفرق بين المتهم والضحية : " في معالجاته للقضايا يميل عاصم للتعاطف مع كثيرين من المتهمين ، وأحيانا يدين الضحايا ، وكثيرا ما سبب حرجا لمدير التحرير " فصل ٥ .

لكن عاصم لا يعترف بذلك ، بل : " ردد شكوي رسول مثله مجهول : يا إلهي .. أورثتني المعرفة كثرة الحزن ، وأضاف وعلمتني زوجتي الصبر " فصل ٤ .

وهو علي خلاف الرسل ، حزين علي ما ضاع من حياته دون جدوى : " كيف تعوض سنوات (عجاف) من حياتك استهلكتها زوجة لا تحب الحياة ، ولم تفهمك يوما . إذا أعدت لك طعاما وأنت نائم . أزاحت عنك الغطاء ، ونبهتك بعنف : الأكل" فصل ٥ .

إن الاختلاط في شخصية عاصم ، نابع من التضاد بين نفسه ، التي تنزع إلي القيم النبيلة (تقمص روح الأنبياء) وبين الواقع الفظ ، المتمثل في زوجة غير مهتمة به ، ومدير تحرير جاهل ، وعنين جنسيا . أضف إلي ذلك ضعفه أمام الإغراء

(رولا) ، وفي نفس الوقت يهيم في عالم غير مرئي : " قال لها أنه لم ينـــم، بـــل غادر جسده ، صعدت روحه في جسده الأثيري إلي عوالم أخري ، لايحد فضاءهـــا شئ ، وكان يراقبها ويراقب جسده المادي ، وهو يطفو هائما في مملكة عليـا لأرواح تحلق " فصل ٥ .

لكنه مع هذا ، يحاول النجاة من الطوفان .

بداية ، في كشف زيف علاقة مدير تحريره ، بعشيقته المزعومة .

تلي ذلك ، رفضه لأي لاوهام ، تتعلق بالقضية الفلســطينية ، فالحاجـة ســعاد " انفجرت : كتبنا لعبد ربه ، قلنا له نخطب لسمير ، نفرح به ، مارد علي جواباتنـا . فكر عاصم ، وكاد أن يصدمها ، بأنه لن يعود ، ولو عاد فإلي السجن ، والأرجح أنه تاه في صحراء سيناء ، بعد أن حمل سلاحه ، متجاوزا خط (أ) إلي فلســطين ، إلا أنه تركها تعيش علي الأمل " فصل ٥ .

رغم أنه يرجح توهان عبد ربه ، إلا أنه يحسم القضية ، وقد طال الزمن ، منــذ تاه عبد ربه في روايته " حديث الجنود " ولم يعد في روايته " باب الســفينة " وقــد مرت سنوات بين الروايتين ، سالت فيها أنهار من الدماء في فلسطين المحتلة . وقرر إعلان موته، فحتي لو عاد ، فالي السجن ، أي غير مجد . طلب من سماح أن تعلــن استشهاده .

" وكانت سماح قد كتبت قصاصات إرشادية ، أثارت دهشـــة المصليــن علــي الحاجة سكينة ، قبل أداء صلاة الغائب علي روح عبد ربه .

الجندي عبد ربه

رفض المشاركة في حرب الخليج الثانية

أتهم بقتل نائب مأمور قسم امبابة

حمل سلاحه الالي باتجاه فلسطين وتاه

نصلي علي روحه حيا او شهيدا

ملحوظة : التحية العسكرية ، وسلام الشهيد أمام القبر " . فصل ٦ .

يتم ذلك في وقت ابن عبد ربه ، سمير يشاهده مباراة في كرة القدم ، وأم رامبــو تقول :

" وأنت يا مسخمط خلي المنادي ينادي علي الميتة

ينادي عليها بين الشوطين يا حاجة ان شاء الله " فصل ٦ .

وهذا الحوار ، غني عن أي تعليق .

ولكن .. رغم الضياع ، واهتمام الجمهرة بالهامشي من الحياة ، وحيــث تتــآمر " كل الكائنات : الأخبار الغبية في الأوراق الدشت ، وأخبـــار وكـــالات الأنبـــاء ، والأنبياء والوساوس " فصل ٧ .

فقد استطاع عاصم أن يتحرر علي المستوي المهني ، ويصبح حرا . واستطاع أن يتحقق عاطفيا ، فقد تزوج من نموذج للمرأة ، علي مستوي الجمال الجسدي ، الفنانون يرسمون ملامحها الجميلة ، وتناسق أعضاء جسدها ،وعلي المستوي النفسي: " سماح الوحيدة التى جرؤت أن تموت حرقا ، بدلا من أن تعيش عارية أمام طبيب لا يزال حائرا . فى نوبة غضب هستيرية نزعت البنت ثيابها تماما ، وأمام الدهشة لم يعلق أحد ، كلّ انتظر تعليق الآخر . وجرت إلي السرير . أمرت الطبيب بالاقتراب من جسدها العاري من الثياب ، والخجل ، ومادام سيعاينها ، ويطلع علي أخص خصوصيتها ، فما الداعي لأي ثياب ؟ " فصل ٤ .

سماح تتعري من الزيف ، لتكشف الحقيقة .

لله درك يا سعد .

تزوج بطلك من نموذج للمرأة ، جميلة ورقيقة ، وثائرة .

وإذا كان بودلير ، قال ، فى السابق :

ألاليت للنساء فما واحدا إذن لقبلته واسترحت .

فدعني أحسد بطلك ، وأقول :

الا ليت هذا النموذج للمراة ، موجود ، إذن لتزوجته واسترحت .

فمن يتزوج هذا النموذج ، سيكون قادرا – ولاشك – على التحرر من أسر أي عمل منافق ، وسيمتلك أمر نفسه ، وسيعثر حتما علي باب السفينة .. باب النجاة .

نحن واللغة العربية الفصحى

إذا طالعت ، عشرات من رسائل الدكتوراة ، لطلبة الدراسات العليا ، بكليات الآداب ، أقسام اللغة العربية ، ستجد أخطاء بالجملة ، فى النحو والصرف ، وأسلوب استخدام الكلمات .

وإذا طالعت ، مؤلفات ، من يمنحونهم ، إجازة الدكتوراة ، فلن يختلف الأمر كثيرا ، فليس الأستاذ أعلم من التلميذ .

وإذا استمعت لأجنبي ، يتكلم العربية، وبعضهم حاصل علي اجازة الدكتوراة فى أدبنا العربي ، سوف تغرق من الضحك ، لعدم استطاعته ، وضع الكلمات جوار بعضها بعضا ، بطريقة صحيحة .

وإذا طالعت مقالات كبار الكتاب والأدباء فى الصحف والمجلات ، لن يسلم الأمر من خطأ ، ومن سوء استخدام .

وسانتقي لك نموذجا ، لواحد من أشهر كتابنا ، وأكثرهم نبوغا رواية " نيويورك ٨٠ " للدكتور يوسف أدريس ، من أخريات أعماله ، أي أنه نضج بما فيه الكفاية ، بالإضافة إلي تمرسه بالكتابة فى أكبر جريدة عربية " الأهرام " ومع ذلك تجد فى روايته أكثر من عشرين خطأ لغويا . وليس ببعيد عن الأذهان خطؤه الشهير فى عنوان مجموعته المعروفة " لرخص ليالي " وكان المفروض أن يقول أرخص ليال .

لقد استطردت قليلا ، لكي نتبين الحقيقة . فهذه عقليات علمية ، عربية وأجنبية ، ولها خبرة وتمرس ، باللغة ، والكتابة ، والتراث ، ومع ذلك عجزت عن كتابة لغة عربية صحيحة .

وليس الأمر حديثا كما قد يعتقد بعضهم ، بل هو قديم ، فزيد بن ثابت وزملاؤه ، وقعوا فى ستة أخطاء نحوية ، وهم يكتبون القرآن الكريم ، صحح الحاج أربعة منها.

ومن حين لآخر تطالعنا بعض المقالات ، عن العلة . ينبغي تبسيط تدريس النحو العربي . طريقة التدريس خاطئة . النماذج المنتقاه من التراث ، بعيدة عن الذوق المعاصر .. إلي آخر هذه العلل .

ونحن نري أن العلة الرئيسية ، هي كثرة قواعد اللغة العربية ، وصعوبة الإلمـــام بها . ولكن النحاة يصرون علي الاحتفاظ بها ، ولم يأخذوا درسا مما فطنـــه القـــرآن الكريم ببعض هذه القواعد .

فالقاعدة النحوية تقول أن الجمع لغير العاقل ، يكون بتاء التأنيث ، وها هو القرآن الكريم يقول : " يا أيها النمل أدخلوا مساكنكم " المفروض طبقا للقاعدة : يــــا أيتـــها النمل ادخلي مساكنك .

وأري أن كسر القاعدة ، تم لسببين ، أن إضافة تاء التأنيث لغير العــــاقل ، فيـــه انتقاص من قيمة المرأة ، والقرآن في مواضع كثيرة قد أنصفها . واســـتخدام التـــاء يحدث لبسا في فهم المعني . فأنت لا تعرف هل المخاطب نملة واحدة ، أم جمع مـــن النمل .

لم ينل ذلك من النحاة ، وما زالت نفس القواعد تدرس في المدارس .

وسأسوق بعض أمثلة لقواعد النحو ، التي لا لزوم لها :

الهمزة ، وما أدراك ما الهمزة .. كم أديبا وكاتبـــا يســـتطيع أن يجيـــب أجابـــة صحيحة : متي توضع الهمزة فوق الألف .. ومتي تحذف .. ؟! وماذا تعنيه همـــــزة الوصل .. وما هي مواضع هذه الهمزة ، وماذا تعنيه همـــــزة القطـــع ، ومـــا هـــي مواضعها ..؟! .وعلي أي حال سواء كانت الألف مهموزة أم لا ، فلا علاقة لذلـــك بالنطق أو المعني.

ولام التقوية .. متي تفيد التقوية والتأكيد ، وكم كاتبا يعرف أنها تجر المفعول بعد أن كان منصوبا .. وكم كاتبا يعرف متي يكون دخولها علي المفعول به في بعـــض الحالات جائزا لا واجبا .. ؟!

الأعداد : مرة توافق ، ومرة تخالف . وإذا جاء العدد بعد المعدود يجوز اعتبـاره صفة أي يوافق . ما فائدة هذا . إن خمسة عشر ، أو خمس عشرة أو خمسة عشرة، تفيد معني واحد . والأصل في هذه القاعدة ، تمييز المؤنث . الآن المؤنـــث بيـــن ، والمذكر بين ، فلماذا نبقي علي هذه القاعدة .. ؟! والجماد ماذا يرجى من تأنيثـــه أو تذكيره ، ولماذا لا نلغي صفة التذكير والتأنيث من الجماد ، حيث لا معني لها .

الجزم . يقولون إذا دخلت عليها لم أصبحت لم يقولوا . لو قلنا لم يقولون ، أليس المعني واحدا . وإذا دخلت عليها لن ، نصبت بحذف النون . ما ضرورة هذا .. هـل هي وقع موسيقاها في الأذن .. بالجزم أوقع .. أبدا .. هل بالجزم أجمل .. أجمل من ماذا ؟!

حذف الياء في آخر الكلمة ، عند الجر أو الرفع .. لو تركنا الياء .. هل يتغـــير المعني .. ؟

نائب الفاعل ، ونائب المفعول المطلق .. وغائب وتقديره هو .. وهذه صفة لنائب فاعل محذوف .. أو تقديره كذا .. وهنا محذوف يقدر باسم موصول كذا.. ويعـــرب الكاتب أشياء لم يكتبها أحد ، وليست موجودة في النص المكتوب ، وعليه أن يقدرها

بكذا وكذا .. أي نعرب أشياء لا وجود لها في الواقع .. ألا يساعد هذا علي الخرافة..ووجود عالم وهمي لا وجود له .. ولنفرض أن القارئ لم يستطع التقدير ، مثل قارئ آخر .. لماذا لا نعرب الموجود أمامنا .. ونترك المستتر والذي تقديره كذا وكذا .

الفعل اللازم والمتعدي .. والهمزة التي تتعدى بالباء .. وإعراب الكلمة علي اعتبار أنها في محل رفع أو محل نصب .. لقد تغيرت صفة الكلمة وأصبحت مجرورة مثلا والنحاة يصرون علي أنها لم تتغير .. ألا يؤثر هذا في عقلية المتحدث بالعربية وجعله لا يعترف بالتغيير مهما حدث .. وهل هناك فائدة في الاحتفاظ بالكلمات في محالها .. ولماذا لا نعترف بالتغيير أو الواقع الجديد للكلمة .. ؟!

عند إسناد الفعل المضارع الذي أخره واو إلي واو الجماعة أو نون النسوة ، تتشابه الصورتان فلا نقل النساء تشكين ، بل يشكون .

الممنوع من الصرف .. ماذا لو فككنا قيده وأطلقناه .. ؟!

ولماذا لا نضيف للغة ما هي في حاجة إليه ، كالماضي التام مثلا .. فالملاحظ أن ما حدث بالأمس ، وما حدث من ألف عام، يعبر عنه بنفس الفعل .

والمستقبل القريب والبعيد ، يسبق الفعل س في الحالين .

لو تركت نفسي لاستطردت إلي مئات القواعد ، لا فائدة منها علي الاطلاق .. فالأصل في القواعد ألا يحدث لبس في المعني .. وهذه القواعد لا تفيد في تبيان أي معني .. وعندما ندعو إلي إلغائها .. فأمامنا محظوران : الأول ألا يؤدي أي تغيير في اللغة ، لعمل قطيعة بيننا وبين قراءة تراثنا .. وألا يؤدي أي تغيير إلي إعاقة قراءة القرآن الكريم . وأزعم أن ما أطالب به ، لا يقطع ما بيننا وبين التراث ، أو قراءة القرآن ، مع العلم أن القرآن ليس مكتوبا باللغة التي نكتب بها ، فله أحواله الخاصة في المد مثلا . كما أن هيئة حروفه ، ليست الهيئة التي كتبها زيد وزملاؤه، فقد كانت الأولي دون تنقيط ودون تشكيل .

إن عدم استيعاب الكثيرين لهذه القواعد ، ليس عن ضعف في الذكاء ، أو المحصلة العلمية ، ولكن لأنها من الكثرة ، بحيث تحتاج متفرغا ، لاعمل له إلا إجادة هذه القواعد في حد ذاتها ، وليس معني الإجادة ، أن نستطيع حفظها بل نستطيع استخدامها ، وأمامنا مدرسو اللغة العربية ، إذا سألتهم عن أي قاعدة ، نطقوها لك دون لجلجة ، وإذا كتبوا ، وقعوا في نفس الأخطاء ، التي يقع فيها غيرهم. إذا فليس الموضوع حفظ القواعد ، أضف إلي ذلك أن المخ البشري يسقط من حسابه ، ما لا قيمة له ، سواء بوعي ، أم لا ، فمهما حفظ الإنسان ، وفي يقينه ألا فائدة مما يفعله ، فلن يتقنه أبدا .

إن الكاتب يود التعبير عن مقتضي الحال ، وينصرف ذهنه للتعبير عن المشاعر والأحاسيس ويجتهد في كتابة لغة ، ليست خبرية ، بقدر ما هي تعبيرية أو مجازية ، عن مواطن الجمال في النفس البشرية والحياة . والعالم والمهني ، وأي مستخدم للغة، يستخدمها كوعاء للفكر يصب فيها مضمونه وما يود توصيله ، لذلك فهؤلاء وأولئك

ليسا فى حاجة إلي كل تلك الفذلكات ، ولكنهم فى حاجة إلي الرئيسي من اللغة ، التى يكفي ضبطها وفهم معانيها وهو ما نري ألا نحتفظ إلا به .

المبتدأ والخبر ، الفعل والفاعل والمفعول به ، الجار والمجرور ، ظرف الزمان وظرف المكان . وعلينا أن نختار بين الحال والصفة ، فلا فرق جوهري بينهما ، سوي أن الصفة تتبع الموصوف ، والحال منصوب .

ونري كما رأي من قبل الدكتور شوقي ضيف ، التخلص من كان وأخواتها ، وإن واخواتها ، واعتبار جملة كان جملة فعلية ، وجملة إن جملة إسمية .

إذا لم نفعل ذلك ، وبسرعة ، سنواجه بعربيات متعددة ، وربما فقدنا القواعد الرئيسية ، التى ندعو للابقاء عليها .

وإذ لم لم يستجب لهذا الرأي ، فالبديل هو الكمبيوتر .حسب علمي يوجد فى جامعة الدول العربية كمبيوتر ، تغذيه بالنص ، فيخرج لك منضبطا لغويا ونحويا . وكان ثمنه من عدة سنوات مليون جنيه .

فهل تستطيع وزارة الثقافة توفيره فى مؤسساتها ،وكذا وزارة التربية والتعليم ، وتتيح استعماله للجمهور .

أو هل تساهم رأسماليتنا الرشيدة فىفتح محال لضبط اللغة العربية بالأجر ، مثل محال تصوير المستندات .. ؟!

وهل يمكن لمجمع اللغة العربية ، أن يتصل بشركات تصنيع الكمبيوتر ، لتصميم جهاز صغير ، مثل الذي يستخدمه التلاميذ فى المدارس للعمليات الحسابية البسيطة. وأن تتلافى ما يوجد فى الكمبيوتر حاليا .. مدقق إملاء ومدقق نحو ، يعطيك أحدهما عدة خيارات ، إذا شك فى كلمة ، ولكن هل تجدي هذه الخيارات مع من لا يعرف الصحيح من الخطأ .. ؟! المهم أن نفعل شيئا .. وألا نترك الأمور تمضي كان شيئا لا يعنينا .

ولقد سبق للجنة الأصول بمجمع اللغة العربية أن تقدمت بمشروع أقره المجمع ، وذلك بإلغاء ١٤ بابا من أبواب النحو التعليمي حفاظا علي أذهان الطلاب من التشتت حيث أن كثرتها توهن من قواهم العقلية . كما اقترح المشروع ذاته إلغاء الإعراب التقديري والمحلى للمفردات والجمل والاكتفاء ببيان وظيفتها تخفيفا علي الناشئة ، كما يلغى إعراب الكلمات التى لا يفيد إعرابها فى صحة النطق .

ونحن نري ، ألا يكون الأمر خاصا بالطلاب فقط وأن يكون التخفيف من أجل الجميع الكتاب والأدباء والعلماء .

وعلينا أن نفيد من كلمة الدكتور طه حسين ، التى ترددها الإذاعة المصرية يوميا " اللغة نحن نملكها كما كان يملكها الأقدمون ، ونستطيع أن نضيف لها كما أضاف الأقدمون " ويري الدكتور محيي الدين محسب[1] ، وكيل الدراسات العربية بجامعة المنيا ، أن هذه الكلمة الشهيرة تحل الكثير من مشكلات اللغة التى لها حياتها وتواكب

---

(١) حديث مع يسري السيد – جريدة الجمهورية – ٢٤ / ١٢ / ١٩٩٨ .

حركة التاريخ ، فعندما تقاس دائما اللغة بما كان فى فترة معينة فى عصر ما بأنه الصواب المطلق ، فهذا يحد كثيرا من مواكبة اللغة للحياة .

ونحن نريد للغتنا أن تواكب حياتنا المعاصرة ، تتفاعل وتتواصل معها . الأدب لم يعد مجرد قصائد عمودية رصينة والعلم لم يعد تفسير كلام أو إطلاق عبارات حكيمة . تعددت الأغراض . كان ابن جنى يقول : اللغة مجموعة أصوات تعبر بها جماعة من الجماعات عن أغراضها . فمطلوب من اللغة الآن أن تعين الجماعة علي التعبير عن أغراض اليوم فى ظل ثورة المعلومات ، والكشوف المذهلة فى مجال العلم .. وتعقد الحياة وما نتج عن ذلك من إشكاليات ، مطلوب إعمال الفكر بشأنها .

فكيف يتأتي ذلك .. كيف يبدع العقل ، ويضيف جديدا للأدب والعلم .. والذهن مشغول ، باستحضار ٣٦١ قاعدة نحوية ، قبل أن يخط صاحبه حرفا .

لقد حل الفنان الشعبي ، وبعض المؤرخين مثل الجبرتي ، هذه الإشكالية ، بأن ضربوا عرض الحائط بالقواعد النحوية ، وكتبوا لغة خليطا من الفصحي وعامية عصرهم .

لا نريد أن نفعل مثلهم ، نريد الاتفاق علي قواعد ضرورية وأساسية ، حتى لا نحد من انطلاق الفكر وانطلاق الإبداع . لأنه إذا تركنا الأمر كما هوعليه ، باسم المحافظة علي اللغة ، ستكون النتيجة ، أن كل إنسان سيكتب حسبما يستطيع استيعابه من قواعد اللغة ، أى سيكتب كل واحد لغة خاصة به ، ولن تمر عدة أجيال .. حتى نري البون شاسعا ، وتفقد اللغة وجودها من حيث أردنا المحافظة عليها .

إن اللغة ظاهرة ، نمت في سياق تاريخي .. ولا يوجد شئ له صفة الإطلاق .. ونحن الآن فى سياق تاريخي آخر ، علينا أن نبتكر وأن نتواصل بلغة ، لا تكون معزولة عن عصرها .. حتي يمكننا أن نبدع ، وأن نضيف .

وقبل ذلك ..

أن نفكر .

مارية القبطية

النشأة :

ولدت مارية بنت شمعون فى قرية بصعيد مصر ، تسمي حاليا ، قريـــة الشـــيخ عبادة ، نسبة إلي الصحابي عبادة بن الصامت ، وكان قد حضر إليها فـــي بعـــض أعماله ، وبني بها مسجداً .

والقرية وما يحيط بهامن قري ، كانت منطقة موحدة فى العصــــر الفرعونـــي ، وتحمل اسم " صفن " ، وهو الاسم الذي عرفت بها قرية الشيخ عبادة فى المـــاضي ، ثم حرف كُتاب التاريخ الاسم إلي " حفن " فى بداية القرن الحالي .

وقرية الشيخ عبادة ، تتوسط قريتي دير أبو حسن والبرشا علي الضفة الشــــرقية للنيل ، قبالة قرية الأشمونين .

أطلق البيزنطيون علي المنطقة اسم أنصنا ، وفى هذه المرحلة أقيمت الكنائس فى قري الشيخ عبادة ودير أبو حسن ودير البرشا ونزلة البرشا وتل العمارنـــــة وتونـــة الجبل .

وتجاور قرية الشيخ عبادة ، من ناحية الصحراء ، أطلال مدينة أنصنا القديمـــة ، التي بناها القيصرالروماني أدريان فى عام مئة وثمانين من الميلاد ، لتكون مركـــزا للأقاليم القبلية ، بدلاً من الأشمونين . وسكنت هذه المدينة العائلات الرومانية ، التـــي جاءت من بلاد مصر المختلفة ، كما وفدت عليها عائلات من بعض الأقاليم الأوربية التى كانت تحت الحكم الروماني .

وقرية " الشيخ عبادة " عبارة عن شريط ساحلي أخضـــر ، ولـــها عمـــق فـــي الصحراء حوالي خمسة كيلو مترات، به معبد لأحـــد الرعامســـة وأثـــار فرعونيـــة ورومانية وقبطية . وفى الأشمونين مازالت أطلال كنيسة " البازليكا " ، من العصـــر الروماني ، باقية حتي اليوم .

ويوجد فى العمق الصحراوي للقرية ، بيت مارية القبطيـــة الـــذي تبقـــت منـــه حجرتهاالمبنية بالطوب ، لها باب حديدي ، وعلي جدرانها رسوم ملونة لزهور وأنية ، أتلفت الأمطار بعضها .

فى هذا الجو ، المحاط بالكنائس والأديرة ، والمعابد الفرعونية ، قضت ماريــــة صباها الباكر ، حيث جاورت العائلات الرومانية الفلاحيـــن المصرييـــن . ومـاريـــة ولدت لأب قبطي مصري ، وأم من أصل رومي ، لذلك جاءت جميلـــة ، بيضـــاء ، مشرقة الوجه، شعرها أجعد .

في قصر المقوقس :

ليس معروفا بالضبط كيف انتقلت مارية ، من قريتها في صعيد مصــــر ، إلــي قصر المقوقس في الإسكندرية ، وليس معروفا السن التي انتقلت فيه ، ولكن الثـابت أنها كانت في شرخ الشباب حين غادرته.

كما أنه ليس معروفا، كيف أصبحت مارية جارية . وفي هذا الوقت لم يكن الرق قاصراً علي أسري الحرب والسبايا، بل كان يحدث نتيجة الاختطاف ، أو بقرار مــن الحكومة علي غير الأشراف ، ونتيجة لعجز المدين عن وفاء الدين ، أو نتيجة لسطة الملوك علي الرعايا .

ولأن مارية ، مصرية ، فهي ليست سبية.

ونحن نستبعد أن تكون مارية جارية بسبب وفاء الدين . فكون أمــــهامن أصــل رومي ، يعني أن أباها لم يكن شخصا فقيرا ، أو مدينا ، فهو قد استطاع أن يـــتزوج من امرأة من أصل رومي ، ومعروف ماتمتع به مثل هذه العائلات من ثـــراء ، أو حتى عيش مستور ، في ظل الاحتلال الروماني لمصر . ونظرا لما تمتعت به هـــذه العائلات من مكانة ، فنحن نستبعد أيضا اختطافها.

لم يبق ، إلا أن يكون أبوها قد انحدر به الحال ، ففقد بنته ، وفاءً لضريبة ، قبــل حاكم إقليمه ، أو يكون هذا الحاكم قد أصدر قرارا بضمها لخدمته لسبب أو لآخـــر ، وبعد قليل قام بإهدائها للمقوقس ، تزلفا ، أو طمعا في مكافأة ، نظرا لما تتمتـــع بـــه مارية من جمال ورقة .

وثمة احتمال أن يكون المقوقس ،أو أحد من حاشيته، رأي ماريـــة ، واختارهـــا لتعمل في القصر ، أي اختيرت لخدمة عامة، وبعد ذلك قام أبوهـــا بإهدائـــها إلـــي المقوقس تقربا .

وما يقال عن مارية ، يقال أيضا عن شقيقتها سيرين ، التي كانت تعيش معـــهافي قصر المقوقس .

الحياة في قصر المقوقس :

أمضت مارية سنوات من شبابها في قصر المقوقس ، سواء في الاسـكندرية ، أو في منف ، والحياة في قصر المقوقس تشبه الحياة في قصور الأباطرة ، تحـــف بـــها مظاهر الترف والأبهة ، زد علي ذلك ما تمتع بع المقوقس من مكانة خاصة ، حيـــث عرف عنه أنه ملم بأسرار الكتب الدينية . وكلمة: المقوقس ، تعني : عظيم القبـــط ، والرجل المتبحر في الدين ، كما تعني الرجل الطويل (سواء في العمر ، أو لأنه يقيم أبنية عالية) ، وتعني أيضا المحارب الداهية من الرجال .

والمقوقس الذي نعنيه هنا هو جيريج بن ميناء ، وكان قصره يمج بالوافدين مـــن المناطق المختلفة ، يحاورونه، ويسمعون منه ، نضجت مارية فـــي هـــذا الجـــو ، وسمعت عن النبي محمد عليه الصلاة والسلام ، قبل أن يتقرر سفرهاإليه . فقد وفـــد إلي المقوقس مرة ، المغيرة بن شعبة ، مع رجال من ثقيف ، فسأله المقوقس :

– ماذا صنعتم فيما دعاكم إليه محمد ؟!

قال المغيرة ، ولم يكن قد أسلم بعد :

– ما تبعه منا رجل واحد .

قال المقوقس :

– كيف صنع به قومه ؟

قال المغيرة :

– اتبعه أحداثهم ، ولاقاه من خالفه في مواطن كثيرة

قال المقوقس :

– إلام يدعو ؟

قال المغيرة :

– إلي أن نعبد الله وحده ، ونخلع ما كان يعبد أباؤنا ، ويدعو إلي الصلاة والزكاة، وتحريم الزنا والخمر .

قال المقوقس :

– إن هذا لمن صفات الأنبياء .

ولم تكن الوفود ترد إلي مصر ، نظرا لما تتمتع به من مكانة مؤثرة ، في المنطقة من حولها ، علي مر التاريخ فحسب ، ولكن أيضا لما مثلته الكنيسة المصرية في ذلك الوقت ، فقد وقفت الكنيسة في الاسكندرية بجانب المذاهب المعارضة لكنيسة أباطرة الرومان في القسطنطينية ، وكان المصريون علي خلاف مع الرومان في المذهب الديني ، وسقط منهم شهداء كثيرون ، وكانت الكنيسة في مصر تناصر المصريين الذين يئنون من وطأة الضرائب ، وأصبحت المسيحية المصرية مرادفة للوطنية ، ومعقلا للمقاومة ضد المحتل الروماني . وتوج الصراع بنصر للأرثوذكسية ، وبالتالي نصر لكنيسة الإسكندرية .

ولذا كانت أنظار الشعوب حولنا ، متعلقة بالأمل ، نحو مصر ، ومن هنا كان حرص زعمائهم عند زيارة مصر ، علي لقاء المقوقس والتحدث معه .

مارية تغادر مصر :

في العام السابع من الهجرة ، عقد النبي محمد هدنة مع قريش (صلح الحديبية)، وبعث كتابا إلي المقوقس مع حاطب بن بلتعة اللخمي ، واصطحب هذا معه " جيد " مولي أبي رحم الغفاري .

قابل حاطب المقوقس في قصره بالاسكندرية ، وأعطاه الكتاب . فض المقوقس الختم ، فإذا فيه :

(بسم الله الرحمن الرحيم .

من محمد بن عبد الله إلي المقوقس عظيم القبط . سلام علي من اتبع الهدي ، أما

بعد أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم ، يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط . " يا أهل الكتاب تعالوا إلي كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ") .

بعد أن استمع المقوقس إلي الكتاب ، قال لحاطب :

– ما منعه إن كان نبيا أن يدعو علي من خالفه وأخرجه من بلده إلي غيرها .

قال حاطب :

– ألست تشهد أن عيسي بن مريم رسول الله ، فما له حين أخذه قومه ، فأرادوا أن يقتلوه ، ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالي .

قال المقوقس :

– أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم .

قال حاطب :

– أنه كان قبلك رجل – يقصد " فرعون " – يزعم أنه الرب الأعلي فأخذه الله نكال الآخرة والأولي فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك بك . إن هذا النبي – يقصد " محمد " – دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه مودة النصاري ، ولعمري ، ما بشارة موسي بعيسي إلا كبشارة عيسي بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلي القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلي الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوما فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت من أدرك هذا النبي ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكنا نأمرك به .

ويلاحظ من حديث يلتمه أنه كان علي دراية بالمسيحية ، ليس لأنه زار مصر من قبل فحسب ، بل لأن المسيحية لم تكن غريبة عن أهل الجزيرة العربية ، فقبيلة الفرافصة تدين بالمسيحية ، وتزوج منهم الخليفة عثمان بن عفان نائلة المسيحية ، والتي وقفت بجانبه ساعة اغتياله ، وفي مكة كان كثيرون يهجرون عبادة الأوثان ، ويعتنقون المسيحية ، فورقة بن نوفل العالم الجليل وقريب خديجة الزوجة الأولي للنبي محمد ، قد اعتنقها . وحين أراد أهل مكة تجديد الكعبة بعد أن صدع مبانيها سيل من الجبل عاونهم نجار مسيحي ، في نجر وتسوية الخشب اللازم لذلك .

قال المقوقس :

– إني نظرت في أمر هذا النبي ، فرأيته لا يأمر بمزهود فيه ، ولا ينهي عن مرغوب عنه ، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء ، والإخبار بالنجوي ، وسأنظر .

ثم سأل المقوقس عن محمد :

– أفي عينيه حمرة ؟

قال حاطب :

– ما تفارقه .

قال المقوقس :

– أو بين كتفيه خاتم ويركب الحمار ويلبس الشملة ، ويجتري بالثمرات والكسر ، لا يبالي من لاقي من عم أو ابن عم .

قال حاطب :

– هذه صفته .

قال المقوقس :

– قد كنت أعلم أن نبياً قد بقي ، وكنت أظن أنه يخرج من الشام ، وهناك كـــان مخرج الأنبياء ، فأراه قد خرج من أرض العرب ، في أرض جهد وبؤس ، والقبـــط لا تطاوعني علي اتباعه ، وأنا أضن بملكي أن أفارقه .

ثم أضاف :

– أنا لا أحب أن يعلم بمحاورتي اياك أحد من القبـــط ، فـــارحل مـــن عنـــدي ولا يسمع منك القبط حرفا واحداً .

ونزل حاطب ومن معه في ضيافة المقوقس خمسة أيام . وعند الرحيـــل ، دعـــا المقوقس كاتبه ، وكتب إلي النبي محمد هذا الكتاب :

(بسم الله الرحمن الرحيم .

لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك ، أما بعد فقـــد قـــرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه . وقد علمت أن نبيا قد بقي وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام .

وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيـــم ، وبثيـــاب وبغلة لتركبها . والسلام عليك) .

لاحظ " لهما مكان من القبط عظيم " ، فهل لم تكن محظية كالشائع عن الجـواري أم أن الأمر لا يعدو كونه عبارة مجاملة .. !!

وأرجو ألا يؤخذ موقف المقوقس ، علي أنه رفض للدين الجديد ، بقدر ما يؤخـــذ علي أنه موقف سياسي . فلم يكن بعيداً عن الأذهان ، أن الرومان قد انتصروا علـــي الفرس في معركة كبري منذ قليل . وشعر المصريون بالإحباط ، فنصـــر الرومـــان يعني توطيد نفوذهم في الشام ، ومن ثم تشديد قبضتهم علي مصر .

وها هو " هرقل " المنتصر ، يتلكأ بعض الوقت في الشام ، ويصله رسول النبـــي محمد ، دحية الكلبي ، يدعوه إلي الدين الجديد .

لم يستخف النصر " هرقل " ، بل أكرم وفادة دحية الكلبي ، ورده برفق محمـــلا بالهدايا . ولا شك أن كل هذا كان في الاعتبار ، عندما اتخذ المقوقس قراره خاصـــة والجزيرة العربية كان ينظر إليها علي أنها بلاد بؤس ، ومن ذا الذي كان يستطيع أن يتنبأ ، أنه بعد قليل ، سوف تنهض فيها دولة ، تنهي سطوة الإمبراطوريتين معـــا ،

الفارسية والرومانية .

ولم يقتصر المقوقس فى هداياه علي ما ذكر فى كتابه ، بل زاد عليـــها . وكـــان مجمل ما أرسله :

- مارية بنت شمعون وشقيقتها سيرين
- جارية اسمها قيسر وجارية سوداء اسمها بريرة
- غلام أسود اسمه هابو (لم يرد اسمه بعد ذلك فيما تعاقب من أحداث) .
- مابور (قريب لمارية من ناحية الأب وهو بمثابة ابن عم لها) .
- طبيب
- بغلة شهباء (أسماها النبي محمد دلدل)
- فرس ملجم سُمي بميمون
- حمار أشهب سُمي بيعفور
- مربعة فيها مكحلة ومرآة ومشط وقارورة دهن ومقص وسواك .
- جانب من عسل بنها
- ألف مثقال من الذهب
- عشرون ثوبا من قباطي مصر (القباطي نسيج من الكتان)
- جانب من العود والند والمسك وقدح من قوارير .

اصطحب حاطب مارية ، محملا بالهدايا ، واستطاع حين غادر أرض مصـــر ، أن يعثر علي قافلة قادمة من الشام محملة بتجارة ، ومتجهة إلي المدينـــة ، فـــانضم إليها، وصرف الحرس ، الذي كان المقوقس قد بعث به لحمايته ، حتى يصلوا إلـــي مبتغاهم .

وهكذا وصلت مارية إلي المدينة فى العام السابع من الهجرة ، وذكـــرت بعــض المراجع أنها وصلت فى العام الثامن من الهجرة .

مارية في المدينة :

حين رأي النبي محمد مارية ، أعجب بها ، وأحبها كثيرا . احتفظ بها لنفســـه ، وأهدي شقيقتها سيرين لشاعره حسان بن ثابت ، فأنجبت له ولـــده عبـــد الرحمـــن . وأهدي النبي جارية أخري لأبي جهم بن حذيفة العدوي .

وأقامت مارية فى منزل خاص بها ، ملك لحارثة بن النعمان ، ولم يجعلها النبـــي تسكن مع باقي زوجاته ، حيث بني لهن تسع حجرات حول مسجده بالمدينة ، بعضها من حجارة ، وبعضها من الجريد والطين ، وكانت أبوابها جميعا تفتح علي المسجد . وفيما بعد ، اشتدت غيرة زوجات النبي وتظاهرن علي مارية لجمالها ، ولأن النبـــي كان يقضي عندها عامة الليل والنهار ، حين يكون خاليا من المشـــاغل ، واشـــتدت الغيرة خاصة بعد أن حملت مارية بابنه ابراهيم .

حمل مارية :

تزوج النبي محمد عشر زوجات ، بعد وفاة السيدة خديجة ، منهن الشابة البكر مثل عائشة ، ومنهن المرأة الناضجة مثل زينب بنت جحش وجويرية بنت الحارث ، ومنهن من كانت ذات عيال مثل أم سلمة ، هند بنت زاد الركب . ولكنهن جميعا لم ينجبن له . فهل تنجب مارية ، بعد أن بلغ الستين من عمره .

كانت أمنية عزيزة ، خاصة وأبناؤه من السيدة خديجة قد توفوا جميعا عدا فاطمة الزهراء .

وأحسست مارية أعراض الحمل ، وكذبت نفسها ، معللة ذلك بشوق شبابها للولد، وهي وحيدة في الغربة ، ولكن هاهي أعراض الحمل تظهر واضحة جلية .أفضت مارية بسرها لشقيقتها سيرين ، فأكدت لها أن الحمل حقيقة وليس وهما . بعدئذ أخبرت مارية النبي محمد ، فسعد سعادة ما بعدها سعادة . وانتشر الخبر في المدينة. وأصبح الجميع يترقبون مولودا من مارية القبطية . واشتعلت الغيرة بين زوجات النبي ، وأخذت الشائعات المغرضة تنتشر ، لكن هذا لم يمنع النبي من العناية بمارية والإشراف بنفسه علي راحتها ، وتلبية كل ما تحتاج إليه .

اتهام مارية :

لم يعد الأمر قاصراً علي همس هنا ، أو شائعة هناك ، بل تحول إلي اتهام محدد لمارية ، أن قبطيا جاء معها من مصر يقصدون " مابور " ، وأنه يأوي إليها ، ويأتيها بالماء والحطب ، فما الذي يحول بينه وبينها ، ومن ذا الذي يستطيع أن يجزم أنه لم يخلص إليها .

براءة مارية :

وصل النبي محمد هذا الاتهام ، فغضب غضبا شديدا ، وكلف علي بن أبي طالب بالقصاص من مابور .

ورغم احتجاج علي بن أبي طالب ، أنه لا حجة علي مابور ، إلا أنه امتثل للأمر وأخذ في البحث عن مابور .علم أنه علي نخلة يجني التمر . ذهب علي بن أبي طالب إليه ، وحين أبصره مابور مستلا سيفه وقد اربد وجهه بالغضب ، اضطرب فوق النخلة ، وسقط عنه ما كان يستر عورته . ودهش علي بن ابي طالب حين رآه خصياً ، ورجع من فوره وأخبر النبي بما رأي .

بعدها خشي النبي علي سلامة مارية فأسكنها " العالية " بعيداً عن المدينة، بثلاثة أميال ، في مكان ظليل ، به كروم ، وعرف بيت مارية بـ (مشربة أم إبراهيم) وسهر علي العناية بها ، وبجنينها ، وكان يكثر من الذهاب إليها ، وزاد ذلك من غيرة زوجات النبي ، لكنهن لم يجدن ما يتقولن به عليها .

مولد إبراهيم :

في ليلة من ليالي شهر ذي الحجة من العام الثامن للـــهجرة ، وضعـــت ماريـــة مولودا ذكراً ، علي يد القابلة سلمي زوج ابي رافع ، وتيمنا بـــالوليد أعتـــق النبـــي مارية، وسمي الوليد باسم إبراهيم جد الأنبياء .

وتنافست نساء الأنصار ، أي من النساء ترضع إبراهيم ، كي تفرغ مارية للنبي، فقد كن يعلمن شدة تعلقه بها . اختار النبي مرضعاً ، هي ام سيف وجعل في حيازتها سبعا من المعيز ، كي ترضعه بلبنها ، إذا شح ثدياها . وتصدق النبي علـــي فقـــراء المدينة ، ابتهاجا بمولد إبراهيم . وعندما كبر الطفل ، كان يحلوا لأبيه أن يحمله بيـــن ذراعيه ، ويطوف به علي زوجاته وبنته فاطمة ، وحفيديه الحسن والحسين ، ســـائلا عن أوجه الشبه بينهما .. وهو يداعب الصغير .. فكان كلّ يخبره بما يـــري ، عـــدا عائشة التى أنكرت من الغيظ والحسد . وهكذا تأكدت براءة مارية مرة أخري .

مارية في القرآن :

كان النبي محمد يقسم أيامه بين زوجاته وسراريه . وفي يوم حفصة ، اســـتأذنته لزيارة أبيها عمر بن الخطاب . فأذن لها ، ودعا مارية لتجلس معه ، وفى روايـــة أن حفصة استأذنت لزيارة عائشة ، وفى رواية أخري أن مارية جاءت تلتمس لقاءه فـــي شأن لها .

وعندما عادت حفصة إلي بيتها ، وجدت الستر مســـدلا ، وعلمـــت أن ماريـــة بالداخل . أقامت تنتظر علي أحر من الجمر ، وعندما انصرفـــت ماريـــة ، بكـــت حفصة، مستشعرة إهانة بالغة ، أن يتم ذلك علي فراشها ، وعاتبت زوجها ، أنه لـــم يكن ليفعل ذلك في بيت زوجته المتوفاة خديجة ، وأنه يستهين بها ،وكـــانت حفصـــة حادة الطبع مثل أبيها ، ولم تهدأ ، حتى استرضاها النبي ووعد بأن يحرم مارية علي نفسه بعد ذلك ، شريطة أن تكتم هذا السر ولا تبيحه لأحد . ولكن حفصة التى كـــانت صديقة لعائشة ، أفضت إليها بما كان ، وتولت عائشـــة إذاعـــة الســـر بيـــن بـــاقي الزوجات، فتظاهرن جميعاً عليه ، مستمرئات عطفه عليهن ، وترفقه بهن .

ولما تمادين في عنادهن ، اعتزلهن النبي في مشربة له ما يقرب من الشهر . أما مارية فجاءت أيات القرآن ، معاتبة للنبي ، لتحريمها علي نفسه ، دون ذنب جنته .

" يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك ، تبتغي مرضـــاة أزواجـــك والله غفـــور رحيم. قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيـــم " . (ســـورة التحريم).

عندئذ كفر النبي عن يمينه ، وعادت المياه إلي مجاريها بينه وبين مارية .

موت إبراهيم :

لم يكمل إبراهيم عامه الثاني ، حتي أصابه المرض . ولم يسعفه طويلا . تـــألم النبي ألما شديدا ، وحزنت مارية حزنا بالغا . أخذ الأب الطفل من حجر أمه . وجاء

الفضل بن العباس ، ابن عم النبي ، وغسل الصغير . وحمل الجثمان من بيت مارية، وسار وراءه أبوه وصحابته إلي " البقيع " . صلوا عليه ، ووضعه النبي بيـــده فـــي قبره، ثم سوى التراب ، ونداه بالماء .

وفاة مارية :

اعتكفت مارية فى بيتها حزينة ، تحاول أن تتحلي بالصبر ، ، فإذا فـــاض بـــها الكيل ، ذهبت إلي البقيع ، تزور قبر طفلها ، ولكن الأيام كانت تدخر لها مــــا هـــو أسوأ، ففى السنة العاشرة من الهجرة ، توفي النبي .

عاشت مارية خمس سنوات ، فى عزلة عن الناس ، حتى وافتها منيتها فى السنة السادسة عشرة من الهجرة .

وأخذ الخليفة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين فى ذلك الوقت ، بجمع الناس للسير في جنازتها ، وصلوا عليها ، ودفنت بالبقيع . وكان حاطب بن أبي بلتعة قد حدثـــها وأختها سيرين عن الدين الجديد ، وهم فى الطريق إلي المدينة ، فأسلمتا .

مكانة مارية :

تمتعت مارية بمكانة كبيرة ، سواء فى مصر أو فى الجزيرة العربيــــة ، أثنـــاء حياتها ، وبعد وفاتها .

ففى مصر ، تحدث عنها المقوقس فى رسالته إلي النبي محمد بقوله " وبعثت لـــك بجارتين لهما مكان من القبط عظيم " ، لم يقل بعثت بجارية جميلة ، لتهنأ بـــها ، أو لتخفف عنك ، ولكنه حدد أن لها مكانة عظيمة من القبط ، أي من الشعب المصـــري فى ذلك الوقت ، وهذه المكانة ، تتعدي كونها امرأة جميلة ، إلـــي كونـــها مثقفـــة ، رقيقة، تمثل الحضارة ، والخصال المصرية ، فهي سفيرة من شعب مصر إلي بـــلاد الحجاز .

ولا شك أن المقوقس حين اختارها ، كان فى مخيلته ما يقال أن مصرية أخري ، سافرت إلي الحجاز ، فى زمن سابق ، اسمها هاجر ، أنجب منها النبـــي ابراهيـــم ، إسماعيل وسعت بين الصفا والمروة ، بحثا عن أحد يحضر لها ماءً لوليدها اسماعيل، حتي لا يموت عطشا وأصبح ذلك شعيرة من شعائر الحجيج ، يقومون بـــها حتـــي اليوم .

كما يدل علي مكانة مارية لدي المصريين ، أن المقوقس ، أرسل معها خصيـــا لخدمتها ، وطبيباً لتطبيبها .. فأي جارية هذه .. ؟!

ومما يقطع بعلو مكانة مارية ، أنها ليست مهداة لرجل هين ، ولكنها مهداة لرجل استطاع أن يوحد الجزيرة العربية ، ربما لأول مرة فى التاريخ ، ويجمـــع قبائلـــها المتفرقة ، والمتناحرة ، علي كلمة واحدة ، وهو فضلاً عن ذلك يبشر بدين جديـــد ، وقيم إنسانية سامية .. فهل أنا فى حاجة إلي القول ، أن المرسلة لرجل هذا شـــأنه ، لابد وأن تكون علي قدر من الأهمية والمكانة .

ومنذ أول يوم وصلت فيه مارية إلي المدينة ، وهي تعامل معاملة كريمة ، تليق بها ، فلم يسكنها النبي مع باقي زوجاته ، بل أفرد لها بيتا خاصا ، وحين خشي عليها نقلها إلي " العالية " فى البيت الذي يعرف باسم " مشربة أم إبراهيم " وحين ولدت مارية إبراهيم عظمت مكانتها فى نفوس أهل المدينة جميعا . وحين ماتت مارية ، قام عمر بن الخطاب ، بنفسه ، وهو خليفة المسلمين ، بجمع الناس للصلاة عليها ، ووداعها الوداع الأخير ، إلي مقبرتها فى البقيع .

ولاشك أن عمر ، الذي اشتهر بالشدة في العدل ، لم يفعل ذلك ، إكراما لذكري النبي فقط ، ولكن تقديراً لسيرة وسلوك مارية ، أثناء حياة النبي وبعد وفاته ، فلم يعرف عنها أنها قد تداخلت فى الفتن السياسية التى حدثت بعد وفاة النبي مثلما فعلت عائشة ، وظلت سيرتها عطرة علي الدوام . ففي مفاوضات الصلح بين الحسن بن علي ومعاوية ، يقال أن الحسن طالب برفع الخراج عن أهل قرية " صفن " ، إكراماً لذكري مارية ، وتكريما لخئولة ابنها إبراهيم .

وحين جاء عبادة بن الصامت ، الصحابي ، إلي مصر ، بعد فتحها ، بحث عن قرية مارية ، واهتم بها وبأهلها ، وبني فيها مسجداً ، واتخذها مقراً لحكمه وأوصي أن يدفن بها .

هذا ولم تزن آثار مارية القبطية فى قريتها بصعيد مصر ، باقية حتي اليوم . وكان أول من اهتم بمنزل مارية هو محمد علي باشا ، فأرسل نفراً للبحث عنه ، وحين اهتدوا إليه ، حافظوا عليه وأقاموا سوراً حوله .

ثم اهتم الخديو إسماعيل ببيت مارية ، فأحاطه بسور من الحجارة ، وقام بتجديد مسجد عبادة بن الصامت ، وأقام مئذنة جديدة ، بجانب المئذنة القديمة المتصدعة . وأقامت مصلحة الآثار ، سقفا من الأسمنت فوق حجرة مارية ، لحمايتها من الأمطار ، وأقامت بابا حديديا للسور ، أغلقته بقفل لحمايتها .

وسوف تظل ذكري مارية باقية ما بقي الناس يقرءون القرآن ، في صلواتهم وخلواتهم ، واجتماعاتهم ، ويتفقهون فى أسباب مجئ الآيات بشأنها في سورة " التحريم " .

وسوف تظل ذكري مارية حية ، ما دام الناس يرددون كلمات النبي الكريم بشأنها. فها هو يوصي أمته بقوم مارية ، قبط مصر ، فيقول :

" الله الله فى أهل الذمة ، أهل المدرة السوداء ، السحم الجعاد ، فإن لهم نسبا وصهرا " .

أما النسب فيرجع لأمومة هاجر المصرية لإسماعيل جد العرب العدنانية أما الصهر فمن مارية وقومها قبط مصر .

كما يقول النبي محمد أيضا :

" استوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحما " .

المراجع :

- أسد الغابة فى معرفة الصحابة – المجلد السابع – لمعز الدين بـــن الأثـــير، كتاب " الشعب " .
- محمد رسول الله والذين معه جزء (١٥) صلح الحديبيه عبد الحميد جـــوده السحار طبعة عام ١٩٧٨ " مكتبة مصر " جزء (١٦) فتـــح مكـــة عبـــد الحميد جودة السحار طبعة عام ٧٨ " مكتبة مصر " .
- نساء النبي – " بنت الشاطئ " طبعة يناير ١٩٧٣ " دار المعارف " .
- مارية القبطية " حفني ناصف " مجلة " الهلال " يوليو ١٩٨٢ .
- قرية مارية القبطية بقلم حمدي لطفي مجلة " الهلال " يوليو ١٩٨٢ .
- قمم نسائية فى الإسلام أحمد حامد – سبتمبر ٩١ – دار العقيلي – الرياض.
- حياة محمد – محمد حسين هيكل ١٩٦٥ الطبعة التاسعة – " مكتبة النهضـــة المصرية " .

المحتوى

صدر للمؤلف

قصص قصيرة

- سلامات – طبعتان . أدب الجماهير – نوفمبر ١٩٦٩ – إقليم شرق الدلتا الثقافي – ينـــاير ١٩٩٩ .
- كراكيب –٣ طبعات –أدب الجماهير-سبتمبر ١٩٧٠ وسبتمبر ١٩٨٣وفبراير ١٩٨٧.
- سجناء لكل العصور – طبعتان . أدب الجماهير . يونيو ١٩٧٧ وأكتوبر ١٩٨٧ .
- الزمن المستباح – ٣ طبعات . أدب الجماهير . مارس ١٩٧٨ وأغسطس ١٩٨٢ ومارس ١٩٨٦ .
- النيل ينبع من المقطم . مواهب . فبراير ١٩٨٥ .
- كحكة للصبي . دار النديم ، يونيو ١٩٩٠ .

الرواية

- شارع الخلا .٣ طبعات . أدب الجماهير . أكتوبر ١٩٦٨ وأكتوبر ١٩٧٩ وأكتوبر ١٩٩٥.
- نافذة على بحر طناح – ٣ طبعات . أدب الجماهير فبراير ١٩٧٦ – الثقافة الجديدة ١٩٧٩ – فرع الثقافة بالدقهلية مارس ١٩٩٩ .
- المحاصرون . طبعتان . أدب الجماهير . أغسطس ١٩٧٢ و ١٩٩٧ .
- رجال وجبال ورصاص . طبعتان . أدب الجماهير . يونيو ١٩٧٢ و ١٩٩٧ .
- الأسرى يقيمون المتاريس . ٦ طبعات. أدب الجماهير . فـبراير ١٩٧٦ ومـايو ١٩٧٩ ويونيو ١٩٨٥ و سبتمبر ١٩٨٧ وديسمبر ١٩٩٥ وأكتوبر ٢٠٠١
- الصرة – طبعتان . أدب الجماهير . أكتوبر ١٩٧٧ وديسمبر ١٩٩٦.
- القرفصاء . ٣ طبعات . أدب الجماهير . مارس ١٩٧٨ وفـبراير ١٩٩٢ . دار الوفـاء بالإسكندرية.أغسطس ٢٠٠٠ .
- متهمون تحت الطلب . ٣ طبعات . أدب الجماهير. مايو ١٩٨١ ويـنـاير ١٩٨٥ . وزارة الثقافة بسوريا ١٩٨٢ .
- عنقودة وسمرة– طبعتان – إقليم شرق الدلتا الثقافي – ديسمبر ١٩٩٦ . أدب الجمـاهير. أكتوبر ١٩٩٩ .
- الرقص على طبول مصريـة – طبعتـان – ثقافـة الدقهليـة - ديسـمبر ٢٠٠٠ – أدب الجماهير أكتوبر ٢٠٠١ .

المسرح :-

- الناس اللي ما معاهاش . مسرحيتان من فصل واحد . طبعتان . أدب الجماهير . أبريل ١٩٧٢ ومايو ١٩٨٤ .
- حاملات البلاليص . مسرحية في ٣ فصول . أدب الجماهير . يونيو ١٩٨٦ .
- عفواً رئيس الديوان - ٥ مسرحيات من فصل واحد . أدب الجماهير . مارس ١٩٨٧ .

* * *

- أوراق أدبية . طبعتان . أدب الجماهير . ديسمبر ١٩٨٠ . ثقافة الدقهلية - ديسمبر ١٩٩٨ .
- أوراق نقدية . إقليم شرق الدلتا الثقافي . ديسمبر ١٩٩٨ .
- المنصورة تصنع التاريخ . إبداع الحرية . يونيو ٢٠٠٢ .

* * *

أدب الطلائع

- حلوان شامة . قصة طويلة . ٣ طبعات . أدب الجماهير . فبراير ١٩٨٣ وأكتوبر ١٩٩١ . رؤيا بالإسكندرية مع دار آزال ببيروت تحت اسم (حكاية الأمير سيف والأميرة شامة) . فبراير ١٩٩٠ .
- أمن الذئاب . قصة طويلة . رؤيا . نوفمبر ١٩٨٨ .
- تعظيم سلام . قصص . طبعتان . أدب الجماهير . يونيو ١٩٨٩ . إقليم شرق الدلتا الثقافي . مارس ١٩٩٥.
- الأسد ينظر في المرآة . قصص . الحقيقة . فبراير ١٩٩٠ .
- شجرة الدر تتلقى الأمانة . رواية . طبعتان . أدب الجماهير . مايو ١٩٩٠ . هيئة الكتاب ١٩٩٥ .
- بنات رشد . مسرحية . هيئة الكتاب . نوفمبر ١٩٩٠ .
- قرد رئيسة البنائين . قصص . طبعتان . أدب الجماهير . أغسطس ١٩٩١ . يافا للدراسات والأبحاث ١٩٩٢ .
- براءة مارية القبطية . قصة طويلة . أدب الجماهير . سبتمبر ١٩٩٣ .
- مجلس الملكات . قصص . قطر الندى . أغسطس ١٩٩٦ .
- زفاف تحت الماء . قصص . طبعتان . كتاب الهلال . أبريل ١٩٩٩ وتحت اسم (طيور البجع تضحك) . إقليم شرق الدلتا الثقافي . مايو ١٩٩٨ .
- النورس اللص . قصص . قطر الندى . أبريل ٢٠٠٢ .
- الشمبانزي يمص القصب . ثقافة الدقهلية . مايو ٢٠٠٢ .

صدر عن

سلسلة إبداع الحرية

(ش . أحمد فؤاد رقم ٣٤ / ت : ٢٣٢٦١١٤٧ / ٠٥٠ كفر البدماص ـ المنصورة)

المشرف العام / عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل

١- بيت النسيان – قصص	عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل
٢- عزف علي أوتار الحب – شعر	محمد حسنى .
٣- ثمة شئ فى يدي – شعر	فيصل عبده .
٤- همس القلوب – قصص	عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل
٥- الجانب الآخر من النهر – قصص	عليّ الفقى .
٦- أعلي من كل الناس – قصص	فريد محمد معوض .
٧- " المنصورة " تصنع التاريخ – دراسات	فؤاد حجازي .

تحت الطبع :

- حاولت كتير – شعر – شكري رمضان .
- ديوان " ابن الشيخ " وملحمة يوسف الصديق – شعر – فاروق أحمد الشيخ.
- رحلة إلي شاطئ الجبل – قصص   محمود عرفات .
- الرواية الجديدة للكاتب   محمود عرفات .
- أحلام ترانستور – قصص   عبد الفتاح عبد الرحمن الجمل .
- إنهم يقتلون الأسرى (الملف المقدم لمحكمة رأي عربية التى دعا إلي انعقادها اتحاد الأدباء العرب لمحاكمة مجرمي الحرب الإسرائيليين)   فؤاد حجازي .

تصويب الأخطاء

ص	السطر	الخطأ	الصواب
٧١	٩	التى يسكنها شخص أسمه هامان	التى لم يسكنها شخص أسمه هامان
٧٣	٨	الحاجة سعاد	الحاجة سعادة
٧٤	٧	الحاجة سعاد	الحاجة سعادة

رقم الإيداع بدار الكتب
١٣٩١٩ / ٢٠٠٢
ترقيم دولى
٤-١٩-٦٠٧٢-٤٧٧

دار الإسلام للطباعة والنشر
٢٢٥٠٤٥٣ / ٠٥٠ ٠١٢٢٦١٤٣٦٣